جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

خفاء المعنى القرآني على الصحابة الكرام

"دراسة في صحيح البخاري"

إعداد الدكتور

أحمد حسن أحمد عبد العظيم

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة – جامعة الأزهر الشريف

خفاء المعنى القرآني على الصحابة الكرام دراسة في صحيح البخاري

الدكتور

أحمد حسن أحمد عبد العظيم

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة، جامعة الأزهر الشريف، المنصورة، جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني: ahmedabdelazeem2932.el@azhar.edu.eg

ملخص البحث

«يهدف البحث إلى بيان أسباب خفاء المعنى القرآني لدى الصحابة الكرام في مرويات «صحيح البخاري» ومعالجتها، سواء كان هذا خفاء للمراد من الآية الكريمة، أو فهمًا للآية على غير وجهها، أو إدراكًا لبعض الوجوه مع خفاء وجوه أخرى، أو معرفة المعنى الظاهر دون ما دقَّ ولطف، أو تنزيلًا للقرآن على غير مواضعه، وقد انتهجت فيه المنهج الاستقرائي والمنهج التحليلي، وقد أكد البحث على أن اللغة العربية وحدها ليست كافية في إدراك المعاني القرآنية بل لابد من الرجوع إلى النقل عن رسول الله (ﷺ)، كما أكد على تفاوت الصحابة الكرام في معرفة تفسير القرآن الكريم، وقد أبرز البحث عددًا من أسباب خفاء المعنى القرآني لدى الصحابة الكرام، أهمها: حمل النصوص على ظاهرها مع أن المراد منها المجاز، واختلافهم في جودة القريحة وحسن التفهم وقوة الاستنباط وإدراك المعنى الكامن وراء الألفاظ، وعدم مراعاة السياق، وتنزيل القرآن على غير مواضعه، وفهم ألفاظ بعض الآيات على العموم المطلق، والمراد غير ذلك، وغياب بيان رسول الله (ﷺ) عن بعض الصحابة في الآية الكريمة، وعدم الاعتبار بنصوص القرآن الكريم الأخرى، ثم الجمع بين هذه الآيات وفهم ما أشكل منها في ضوء ما لاح معناه وظهر.

كما أبرز البحث السمات الشريفة للبيان النبوي الكريم في معالجته ما وقع الصحابة فيه من أخطاء، وهذه أبرز المعالم:

- التفسير النبوي الكريم أصل لتفسير القرآن بالقرآن؛ إذ ردَّ النبي (ﷺ) بعض القرآن –مما اشتبه فهمه على الصحابة الكرام– إلى بعض.
- **من وجوه تبيين النبي (ﷺ) للقرآن الكريم:** تعيين المبهم، وتخصيص العام.
- الإيجاز البليغ، مع الوفاء بالمعنى على أكمل وجه، بالإضافة إلى الوضوح والجلاء.
- إقامة الدليل على بيان الخطأ الذي قد يقع فيه الصحابة الكرام في تفسير القرآن الكريم.
- استثارة العقل بضرب المثال دون النص على كل ما تحتمله الآية من معان.
- في البيان النبوي الكريم إشارة إلى توسيع معاني القرآن الكريم، وعدم حصرها في وجه واحد، وهذا من إعجاز القرآن المجيد».

الكلمات المفتاحية: (خفاء – المعنى القرآني – الصحابة – دراسة – صحيح البخاري).

The Invisibility of the Quranic Meaning On the Generous Companions .. " A Study in Sahih Al-Bukhari "

Dr. Ahmed Hassan Ahmed Abd El-Azeem
Tafseer Dep. and Qur'an Science – Faculty of Religion Foundation and Dawaa – Al-Mansoura – Al-Azhar University
E mail ahmedabdelazeem2932.el@azhar.edu.eg

Research Summary

The research aims to explain the reasons behind the concealment of the Qur'anic meaning among the noble Companions in the narrations of "Sahih al-Bukhari" and to address them, Whether this is the hidden meaning of the verse, Or an understanding of the verse on the face, Or awareness of some faces while others are hidden, Or knowing the apparent meaning without the hidden, Or, as a download of the Qur'an, which is misplaced, And I used the inductive approach and the analytical approach, The research emphasized that the Arabic language alone is not sufficient for understanding Quranic meanings, Rather, it is necessary to refer to the transmission on the authority of the Messenger of God Peace be upon him, He emphasized the difference of the honorable Companions in their knowledge of the interpretation of the Holy Qur'an, The research has highlighted a number of reasons for the concealment of the Qur'anic meaning among the companions, The most important ones: Explanation the texts on the face of it, Not taking context into account, The research also highlighted the honorable features of the noble prophetic statement in dealing with the mistakes made by the Companions, and these are the most prominent features:

The Noble Prophetic Tafsir is the origin of the interpretation of the Qur'an with the Qur'an. As the Prophet, may God bless him and grant him peace, returned some of the Qur'an - which the honorable Companions had suspected of understanding - to some.

Among the aspects of the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, explain the Holy Qur'an: appointing the vague and specifying the general. Eloquent brevity, with the meaning being fully fulfilled, as well as clarity and clarity.

Establishing evidence to explain the error that the honorable Companions may fall into in interpreting the Holy Qur'an.

Stimulating the mind by giving an example without stating all the meanings of the verse.

In the Noble Prophet's statement, there is a reference to expanding the meanings of the holy Qur'an, and not limiting it to one aspect, and this is part of the glorious Qur'an miracle.

Key words: (Invisibility - Quranic Meaning - Companions - Study - Sahih Al-Bukhari).

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله المنعم على عباده بنعمة القرآن، المشتمل على معالي الحكمة ورائع البيان، المحفوظ من أن تنال معانيه كلُّ يد، إلا بعد الجهد والكدّ، فقد خفيت بعض أسراره على من نزل فيهم، فكان رسول الله (ﷺ) معلمهم وهاديهم، ومرشدهم إلى صحيح معانيه، كما بلغهم لفظه ومبانيه، فكثير من آيات القرآن الكريم لا تتكشف معانيها ولا تتضح مراميها بمجرد معرفة اللسان العربي، إذ لا بد فيها من الرجوع إلى بيان النبي، (ﷺ)، فهو المبلغ عن ربه قرآنه، الموكول إليه تفسيره وبيانه، كما أن كثيرًا من آيات القرآن الكريم لا يعرف معانيها بمجرد بادي النظر بل لا بد من إعمال الفِكَر، فلذلك لم يكن الصحابة في معرفة تفسيره على درجة واحدة، بل كان الفرق بينهم لائحًا، والاختلاف بين علمهم واضحًا.

ولما كان خفاء المعنى القرآني على الصحابة الكرام –مع أنهم أمثل الناس بعد رسول الله (ﷺ)؛ لغة، وفهمًا، واستنباطًا، ومعرفة بالقرآن وأحواله – موضوعًا ذا شأن، حريًّا بأن يبحث فيه، وتُعْلَم أسبابه وملابساته– يمَّمت وجهي نحوه، ووجدت أن «صحيح البخاري» أَوْلى كتب السنة للبحث فيه؛ إذ هو أصحها، مع اهتمامه بالتفسير؛ على ما انتهجه في «صحيحه» من تقسيمه إلى كُتب، أَفْرَدَ للتفسير منها كتابًا، هو (كتاب التفسير) فاستخرجت ما فيه من روايات تشير إلى خفاء المعنى القرآني لدى الصحابة الكرام.

إشكالات البحث

يفترض أن يبين البحث أسباب خفاء المعنى القرآني لدى الصحابة الكرام في مرويات «صحيح البخاري» ومعالجتها، سواء كان هذا الخفاء عدم معرفة المراد من الآية الكريمة، أو فهمًا للآية على غير وجهها، أو إدراكًا لبعض الوجوه مع خفاء وجوه أخرى، أو معرفة المعنى الظاهر دون ما دقَّ ولطف، أو تنزيلًا للقرآن على غير مواضعه.

أما عن **الدراسات السابقة** فلم أقف – فيما اطلعت عليه– على دراسات تختص بدراسة خفاء المعنى القرآني على الصحابة الكرام في مرويات «صحيح البخاري» أو غيره من كتب السنة.

أهمية موضوع البحث:

يرى الباحث أن دراسة خفاء المعنى القرآني لدى الصحابة الكرام والوقوف على أسباب هذا الخفاء له أهمية كبيرة في الدراسات القرآنية؛ إذ من خلال دراسة هذا الموضوع يتجلى لنا بعض عوائق تفسير القرآن الكريم حتى يمكن تلافيها، كما أن البحث في هذا الموضوع يوقفنا على معالجة بعض أسباب الخطأ في التفسير من خلال تبيين رسول الله (ﷺ)، وإبراز بعض السمات الشريفة لتبيينه (ﷺ).

وقد جاء البحث في **مقدمة، وعشرة مباحث، تتلوها خاتمة مشتملة على أهم النتائج**، وقد جاءت المباحث العشرة معنونة بنص الآية الكريمة التي كانت محلًّا لخفاء المعنى، ومرتبة على ترتيب المصحف الشريف، وهي كالآتي:

المبحث الأول قوله تعالى: ﴿... وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ...﴿١٨٧﴾﴾[البقرة: ١٨٧]

وتحته أربعة مطالب:

- **المطلب الأول:** تكرار حصول خفاء المعنى لدى الصحابة الكرام.
- **المطلب الثاني:** أسباب خفاء المعنى عند نزول الآية أولًا.
- **المطلب الثالث:** أسباب خفاء المعنى لدى سيدنا عدي بن حاتم (ﷺ).
- **المطلب الرابع:** معالجة النبي (ﷺ).

المبحث الثاني قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ...﴿٢٦٦﴾﴾[البقرة: ٢٦٦].

المبحث الثالث قوله تعالى: ﴿...وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ...﴿٨٢﴾﴾[الأنعام: ٨٢].

وتحته ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** خفاء المعنى القرآني على الصحابة الكرام في تفسير هذه الآية.
- **المطلب الثاني:** أسباب خفاء المعنى القرآني الصحيح.
- **المطلب الثالث:** المعالجة النبوية الكريمة لفهم الصحابة الكرام

المبحث الرابع قوله تعالى: ﴿...وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾[التوبة: ٣٤].

وتحته ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** مَن خفي عليهم المعنى الصحيح من الصحابة الكرام.
- **المطلب الثاني:** أسباب خفاء المعنى الصحيح.
- **المطلب الثالث:** بيان المعنى الصحيح للآية الكريمة.

المبحث الخامس قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ...﴿٨٠﴾﴾[التوبة: ٨٠]

وتحته ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** وجه الدلالة على خفاء المعنى في الروايات السابقة.

- **المطلب الثاني:** أسباب خفاء المعنى.
- **المطلب الثالث:** الفهم النبوي الكريم للآية.

المبحث السادس قولـــه تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ...﴿١١٠﴾ ﴾[يوسف: ١١٠].

وتحته أربعة مطالب:

- **المطلب الأول:** القراءات المتواترة في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ [يوسف: ١١٠]
- **المطلب الثاني:** المعاني المحتملة على كل من القراءتين.
- **المطلب الثالث:** معاني الآية الواردة عن الصحابة الكرام (ابن عباس وابن مسعود وعائشة (رضي الله عنهم))
- **المطلب الرابع:** خفاء المعنى القرآني على أم المؤمنين (رضي الله عنها).

المبحث السابع قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ...﴿٣﴾ ﴾[الجمعة: ٣].

وتحته مطلبان:

- **المطلب الأول:** البيان النبوي الكريم.
- **المطلب الثاني:** الأدلة على عموم الآية الكريمة وعدم اختصاصها بقوم دون غيرهم.

المبحث الثامن قوله تعالى: ﴿...وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ... ﴿٤﴾ ﴾[التحريم: ٤].

المبحث التاسع قولـــه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾[الانشقاق٧-٨].

وتحته ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** وجه التعارض المتوهَّم بين الآية والحديث.
- **المطلب الثاني:** سبب خفاء المعنى لدى أم المؤمنين.

- **المطلب الثالث:** خصائص البيان النبوي الكريم.

المبحث العاشر قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾[النصر: ١].

وتحته أربعة مطالب:

- **المطلب الأول:** المعاني الإجمالية الواردة في تفسير السورة الكريمة.
- **المطلب الثاني:** المعنى الظاهر معنى صحيح.
- **المطلب الثالث:** الأدلة المثبتة للمعنى الدقيق في هذه السورة.
- **المطلب الرابع:** سبب خفاء المعنى على بعض الصحابة الكرام.

ومن الله تعالى نستمد العون والرشاد

المبحث الأول

قوله تعالى: ﴿...وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ...﴿١٨٧﴾﴾ **[البقرة: ١٨٧]**

روى الإمام البخاري بسنده عن الشعبي، عن عدي، قال: أخذ عديٌّ عقالًا أبيض، وعقالًا أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا، فلما أصبح قال: يا رسول الله، جعلت تحت وسادي عقالين، قال: «إن وسادك إذا لعريض أن كان الخيط الأبيض، والأسود تحت وسادتك»(١).

وبسنده عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه)، قال: قلت يا رسول الله: ما الخيط الأبيض، من الخيط الأسود أهما الخيطان، قال: «إنك لعريض القفا، إن أبصرت الخيطين»، ثم قال: «لا بل هو سواد الليل، وبياض النهار»(٢).

وبسنده عن سهل بن سعد، قال: وأنزلت ﴿...وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ...﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧] ولم ينزل ﴿...مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧] وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٢٦/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ...}) حديث رقم: (٤٥٠٩)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ. ومسلم في «صحيحه»: (٧٦٦/٢) كتاب: (الصيام) باب: (بَيَانِ أَنَّ الدُّخُولَ فِي الصَّوْمِ يَحْصُلُ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ...) حديث رقم: (١٠٩٠)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٢٦/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ...}) حديث رقم: (٤٥١٠).

الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعده: ﴿...مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ...١٨٧﴾[البقرة: ١٨٧] «فعلموا أنما يعني الليل من النهار»(١).

الدراسة والتحليل

تبين لنا الروايات السابقة أن التباسًا حصل لدى الصحابة الكرام في فهم قوله تعالى: ﴿... وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ...١٨٧﴾[البقرة: ١٨٧] فقد حُمل هذا النجم الكريم من الآية على حقيقته اللغوية وظاهر لفظه، دون التنبه إلى مراده وحقيقة معناه، ونجمل القول في أربعة مطالب:

- **المطلب الأول:** تكرار حصول خفاء المعنى لدى الصحابة الكرام.
- **المطلب الثاني:** أسباب خفاء المعنى عند نزول الآية أولًا.
- **المطلب الثالث:** أسباب خفاء المعنى لدى سيدنا عدي بن حاتم (رضي الله عنه).
- **المطلب الرابع:** معالجة النبي (ﷺ).

ونستعين بالله على تفصيل ما أجملناه.

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٢٦/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({وكُلُوا واشْرَبُوا حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ...}) حديث رقم: (٤٥١١) ومسلم في «صحيحه»: (٧٦٦/٢) كتاب: (الصيام) باب: (بَيَانِ أَنَّ الدُّخُولَ فِي الصَّوْمِ يَحْصُلُ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ...) حديث رقم: (١٠٩١)، واللفظ للبخاري.

المطلب الأول
تكرار حصول خفاء المعنى لدى الصحابة الكرام

تفيد الروايات التي أوردها الإمام البخاري أنَّ ما حدث لسيدنا عدي بن حاتم (ﷺ) قد وقع مثلُه لكثيرٍ من الصحابة، وذلك عند نزول الآية الكريمة، ففي رواية البخاري المتقدم ذكرها عن سهل بن سعد، قال: «وأنزلت: ﴿...وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ...﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧] ولم ينزل: ﴿...مِنَ ٱلْفَجْرِ...﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧] وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعده: ﴿...مِنَ ٱلْفَجْرِ...﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧] «فعلموا أنما يعني الليل من النهار».

وتأمل قوله: «وكان رجال إذا أرادوا الصوم... إلخ» يتبين لك أنَّ الأمر كان فاشيًا، وأنها ليست من آحاد الوقائع.

المطلب الثاني
أسباب خفاء المعنى عند نزول الآية أولا

والسؤال الذي يثور هنا: ما الذي أوقع الصحابة الكرام في هذا الفهم الخاطئ للآية؟ ثمت وجهان ذكرهما العلماء في إيراد سبب وقوع هذا الفهم الظاهري للآية الكريمة:

الأول: تأخر نزول قوله تعالى: ﴿...مِنَ ٱلْفَجْرِ...﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧] وهو صريحُ حديثِ سهل بن سعد (ﷺ) المتقدم، حتى قال بعض المفسرين: كانت المدة بينهما عام[1] مما أدى إلى حمل الآية على هذا المعنى الظاهري وعدم التنبه إلى المعنى الصحيح.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» لابن عطية (المتوفى: ٥٤٢هـ): (٢٥٨/١) المحقق: عبدالسلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت،=

ولا يَرِد على ذلك أنه تأخير للبيان عن وقت الحاجة؛ فإنه لا إجمال هنا، وإن خفي على البعض؛ فإن «استعمال الخيط الأبيض والأسود في سواد الليل وبياض النهار كان مشتهرًا ظاهر الدلالة غير واجب البيان، وإن خفى على البعض لقلة تدبرهم، فهو من باب المشكل الذي خفي مراده من جهة الصيغة باستعمال تجوُّزٍ أو غير ذلك، بحيث يدرك المراد بالتأمل والطلب، ونزول قوله تعالى: ﴿...مِنَ ٱلْفَجْرِ...﴾[البقرة: ١٨٧] إنما هو للاحتياط وحفظ القاصرين وإغناء السامعين عن الطلب والتأمل، ولم يكن من باب المجمل الذي لا يتصور درك مرامه إلا من جهة الشارع، فلا محذور في تراخي نزوله»[(١)].

ولو سلمنا أنه من باب المجمل الذي يحتاج إلى بيان؛ فإنه ليس من تأخير البيان عن وقت الحاجة، بل هو تأخير للبيان إلى وقت الحاجة، ولا شيء فيه كما قال المفسرون[(٢)].

=الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.، «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» للسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ): (٢٩٧/٢) المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.

(١) التفسير المظهري (٢٠٥/١)، تأليف محمد ثناء الله المظهري، المحقق: غلام نبي التونسي، الناشر: مكتبة الرشدية – الباكستان، الطبعة: ١٤١٢هـ.

ويقول الطاهر ابن عاشور (المتوفى: ١٣٩٣هـ): «وأيا ما كان فليس في هذا شيء من تأخير البيان؛ لأن معنى الخيط في الآية ظاهر للعرب، فالتعبير به من قبيل الظاهر لا من قبيل المجمل، وعدم فهم بعضهم المراد منه لا يقدح في ظهور الظاهر، فالذين اشتبه عليهم معنى الخيط الأبيض والخيط الأسود، فهموا أشهر معاني الخيط» «التحرير والتنوير»: (١٨٥/٢) الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤م.

(٢) قال الإمام البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) عند تفسيره لهذه الآية: «... وتأخير البيان إلى وقت الحاجة جائزة، أو اكتفي أولًا باشتهارهما في ذلك، ثم صرح بالبيان لما التبس=

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض المفسرين لم يعب فهم الآية على ظاهرها قبل نزول قوله تعالى: ﴿...مِنَ ٱلْفَجْرِ...﴿١٨٧﴾﴾[البقرة: ١٨٧] ولم يعتبروه من باب تأخير البيان إلى وقت الحاجة، بل عدُّوه من باب النسخ، يقول الإمام الطحاوي (رحمه الله): «فكان الحكم أن يأكلوا ويشربوا حتى يتبين ذلك لهم، حتى نسخ الله (عز وجل) بقوله: ﴿...مِنَ ٱلْفَجْرِ...﴿١٨٧﴾﴾[البقرة: ١٨٧] على ما ذكرنا ما قد بينه سهلٌ في حديثه»(١).

وقال أبو حيان (رحمه الله): «وليس هذا عندي من تأخير البيان إلى وقت الحاجة، بل هو من باب النسخ، ألا ترى أن الصحابة عملت به، أعني بإجراء اللفظ على ظاهره إلى أن نزلت: ﴿...مِنَ ٱلْفَجْرِ...﴿١٨٧﴾﴾[البقرة: ١٨٧] فنسخ حمل الخيط الأبيض والخيط الأسود على ظاهرهما، وصارا مجازين»(٢).

الثاني: أنهم فهموا من الآية تعلق قوله تعالى: ﴿...مِنَ ٱلْفَجْرِ...﴿١٨٧﴾﴾ بقوله: ﴿...يَتَبَيَّنَ ﴿١٨٧﴾﴾ على أنَّ ﴿مِنَ﴾سببية، أي: يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود بسبب الفجر، وهذا القول مبناه على أن الآية نزلت بتمامها ولم ينزل

=على بعضهم» ينظر: «تفسير البيضاوي»: (١/١٢٦)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ.

(١) «شرح معاني الآثار»: (٢/٥٤) لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، حققه وقدم له: (محمد زهري النجار – محمد سيد جاد الحق) راجعه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: د يوسف عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.

(٢) «البحر المحيط»: (٢/٢١٥) لأبي حيان محمد بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

منها أولًا قوله تعالى: ﴿...وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ...﴿١٨٧﴾﴾[البقرة: ١٨٧]، ثم نزل بعد ذلك قوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾. ولكن يعكر على هذا الوجه حديثُ سهل بن سعد عند البخاري، وفيه تصريح بأن قوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾ نزل متأخرًا.

وهذا السبب أورده الطاهر ابن عاشور حيث يقول: «فالذين اشتبه عليهم معنى الخيط الأبيض والخيط الأسود، فهموا أشهر معاني الخيط، وظنوا أن قوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾ متعلق بفعل {يتبين} على أن تكون {من} تعليلية، أي: يكون تبيُّنُه بسببِ ضوءِ الفجر، فصنعوا ما صنعوا»[1].

المطلب الثالث

أسباب خفاء المعنى لدى سيدنا عدي بن حاتم (رضي الله عنه)

لئن كان عذر الصحابة الكرام الذين فهموا الآية على أشهر معانيها وحملوا الخيط الأبيض والخيط الأسود على حقيقته اللغوية: أنَّ هذا كان في أول فرض الصيام، وأن الآية لم تنزل بتمامها، بل نزل منها أولًا قوله تعالى: ﴿...وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ...﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧]، ثم نزل بعد ذلك قوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾، كما يشير إلى ذلك حديث سهل بن سعد (رضي الله عنه)؛ أو أنهم فهموا من الآية تعلق قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾ بقولـــه: ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ على أنَّ ﴿مِنْ﴾ سببية على رأيٍ آخر؛ فما الأسباب التي أوردها العلماء والتي أدت إلى خفاء المعنى الصحيح على سيدنا عدي بن حاتم (رضي الله عنه)؟

أقول مستعينًا بالله: ذكر العلماء أمورًا، مردها إلى أربعة:

---

(١) «التحرير والتنوير»: (٢/١٨٥).

الأول: أنه فهم من الآية الحقيقة اللغوية، فحمل الخيط الأبيض والخيط الأسود على أشهر معانيهما، مع أن المراد المجاز؛ والسبب في ذلك كما يقول الزمخشري أنه «غفل عن البيان»[(١)] وتبعه في ذلك أبو حيان حيث يقول: «غفل عن هذا التشبيه وعن بيان قوله: من الفجر، فحمل الخيطين على الحقيقة»[(٢)].

الثاني: أن ما ذكر في الآية الكريمة لعله مجازٌ في قريش دون غيرها، فلم يتنبه له سيدنا عدي بن حاتم وهو من قبيلة طيء، قال ابن الفرس: «ويحتمل أن تكون العبارة بالخيط الأبيض مجازًا سابقًا في لغة قريش دون غيرها، فأشكل على قوم آخرين»[(٣)] .

الثالث: أن سيدنا عديًّا (رضي الله عنه) لم يسمع ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ فلم يتنبه إلى هذا البيان، وحمل اللفظ على حقيقته، يقول الإمام السيوطي (رحمه الله): «قال بعضهم: كأن عديًّا لم يسمع هذه اللفظة من الآية؛ لأنها نزلت قبل إسلامه بمدة كما تقدم»[(٤)].

---

(١) «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»: (٢٣١/١) لأبي القاسم محمود بن عمر، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ.

(٢) «البحر المحيط»: (٢١٥/٢).

(٣) «أحكام القرآن» لابن الفرس (المتوفى: ٥٩٧ هـ) : (٢٠٩/١) تحقيق الجزء الأول: د/ طه بن علي بو سريح، تحقيق الجزء الثاني: د/منجية بنت الهادي النفري السوايحي، تحقيق الجزء الثالث: صلاح الدين بو عفيف، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

(٤) «التوشيح شرح الجامع الصحيح» للإمام السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ): (١٤٢٧/٤)، تحقيق: رضوان جامع رضوان، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

ومما يدل على أن سيدنا عديًّا لم يتنبه إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أنَّ النبي (ﷺ) ذكَّره بها وأعادها عليه، وسأله قائلا: «ألم أقل لك: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾» وذلك فيما أخرجه الطبري بسنده عن عدي بن حاتم، قال: «أتيت رسول الله (ﷺ) فعلَّمني الإسلام، ونَعت ليَ الصلوات، كيفَ أصَلي كلَّ صلاة لوقتها، ثم قال: إذا جاء رمضان فكل واشرب حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتم الصيامَ إلى الليل. ولم أدر ما هو، ففعلتُ خَيطين من أبيض وأسود، فنظرت فيهما عند الفجر، فرأيتهما سواءً. فأتيت رسول الله (ﷺ) فقلت: يا رسول الله كل شيء أوصيتني قد حفظتُ، غير ﴿...ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ...﴿١٨٧﴾﴾[البقرة: ١٨٧]! قال: وما منعك يا ابن حاتم؟ وتبسَّم كأنه قد علم ما فعلت. قلتُ: فتلت خيطين من أبيض وأسود فنظرتُ فيهما من الليل فوجدتهما سواء! فضحك رسول الله (ﷺ) حتى رُئي نَواجذُه، ثم قال: ألم أقلْ لك: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾؟ إنما هو ضوء النهار وظلمة الليل»[1].

الرابع: فهم سيدنا عدي بن حاتم أن لفظة ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ للسببية، أي: يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود بسبب الفجر؛ جاء في «تفسير المظهري»: «فما كان من عدى بن حاتم جعل الخيطين تحت وسادته لم يكن إلا زعمًا منه أن ﴿مِنۡ﴾ للسببية»[2].

(١) «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» المعروف بـ«تفسير الطبري» (٥١٢/٣) للإمام أبي جعفر، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، توزيع: دار التربية والتراث – مكة المكرمة، الطبعة: بدون تاريخ نشر.

(٢) «التفسير المظهري»: (٢٠٦/١).

هذه الأسباب الأربعة جماع ما ذكره العلماء في بيان السبب الذي من أجله لم يصب سيدنا عديٌّ صحيح المعنى القرآني المراد.

وهناك من المفسرين من أرجع سبب خفاء المعنى لدى عدي بن حاتم (ﷺ) إلى تأخر نزول قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، يقول الشيخ ابن عجيبة الحسني (المتوفى: ١٢٢٤هـ): «... ولم ينزل قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ إلا بعد مدة، فحمله بعض الصحابة على ظاهره، فعمد إلى خيطٍ أبيض وخيط أسود فجعلهما تحت وِسادته، فجعل يأكل وينظر إليهما، فلم يتبيَّنا، ومنهم عَديُّ بنُ حاتم، قال: فغدوتُ إلى رسول الله (ﷺ) فأخبرته فضحِك، وقال: «إنك لَعَرِيضُ القَفا، إنَّمَا ذلِكَ بَيَاضُ النَّهَارِ وسَوَادُ اللَّيْلِ»[1].

قلت: هذه غفلة من الشيخ (رحمه الله)، فلئن كان هذا التوجيه سائغًا في أول مشروعية الصيام وفي بداية نزول الآية كما دل عليه حديث سهل بن سعد (ﷺ)، فإنه غير سائغ بالنسبة لسيدنا عدي (ﷺ)، وذلك للأسباب الآتية:

١- نزول آية الصيام كان في السنة الثانية من الهجرة، وإسلام سيدنا عدي كان في سنة تسع وقيل: سنة عشر[2] فيبعد أن يبقى البيان القرآني متأخرًا طول تلك المدة، كما أشار إلى ذلك الطاهر ابن عاشور بقوله: «فإن عديًّا أسلم سنة

(١) «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٢١٦/١) لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني (المتوفى: ١٢٢٤هـ)، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: ١٤١٩ هـ.

(٢) ينظر في ذلك: «أسد الغابة»: لعز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ): (٥٠٥/٣)، الناشر: دار الفكر – بيروت، عام النشر: ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر: (٣٨٨/٤) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٥هـ.

تسع أو سنة عشر، وصيام رمضان فرض سنة اثنتين ولا يعقل أن يبقى المسلمون سبع أو ثماني سنين في مثل هذا الخطأ»[1].

٢- ما جاء في رواية الإمام مسلم من ذكر الآية كاملة، فقد روى مسلم بسنده عن عدي بن حاتم (ﷺ)، قال: «لما نزلت: ﴿...حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ...﴿١٨٧﴾﴾[البقرة: ١٨٧] قال له عدي بن حاتم: يا رسول الله، إني أجعل تحت وسادتي عقالين: عقالًا أبيض وعقالا أسود، أعرف الليل من النهار، فقال رسول الله (ﷺ): «إن وسادتك لعريض، إنما هو سواد الليل، وبياض النهار»[2].

٣- جاء في بعض الروايات أن النبي (ﷺ) قال لعدي لما عاد إليه: «ألم أقل لك ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾؟» وذلك فيما أخرجه أبو علي الحسن بن علي بن نصر الطوسي (المتوفى: ٣١٢هـ) في «مستخرجه على جامع الترمذي» بسنده عن عدي بن حاتم الطائي قال: أتيت رسول الله (ﷺ) فعلمني الإسلام فنعت الصلوات كيف أصلي لوقتها، ثم قال: إذا جاء شهر رمضان فصم حتى تتم ثلاثين يومًا إلا أن ترى الهلال قبل ذلك، ثم كل واشرب حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتم الصيام، فأتيت أهلي فحفظت كل شيء أوصاني به رسول الله (ﷺ) عدا الخيط الأبيض من الخيط الأسود، لم أدر ما هو، قال: ففتلت خيطين أبيض وأسود من صوف فنظرت إليهما عند القمر فرأيتهما سواء

---

(١) «التحرير والتنوير»: (١٨٥/٢).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»: (٧٦٦/٢) كتاب: (الصيام) باب: (بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، وأن له الأكل وغيره حتى يطلع الفجر، وبيان صفة الفجر الذي تتعلق به الأحكام من الدخول في الصوم، ودخول وقت صلاة الصبح وغير ذلك) حديث رقم: (١٠٩٠).

فأتيت رسول الله (ﷺ)، فقلت: يا رسول الله كل شيء أوصيتني به حفظته غير الخيط الأبيض من الخيط الأسود لم أدر ما هو، قال فما فعلت يا ابن حاتم؟ كأنه علم ما صنعت، قال: فقلت: فتلت خيطين أبيض وأسود من صوف فنظرت إليهما من الليل فرأيتهما سواء، قال: فضحك رسول الله (ﷺ) حتى رأيت نواجذه، ثم قال: ألم أقل لك: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ إنما هو ضوء النهار وظلمة الليل»[1].

٤- لو لم تكن الآية -حين أسلم عدي بن حاتم (رضي الله عنه)- قد نزلت كاملة لَمَا كان لتعجب رسول الله (ﷺ) وجهٌ، ولما كان لتبسمه (ﷺ) من فعل عدي موقعٌ؛ فإن قولَه: ﴿...وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ...﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧] دون قوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ محتملٌ لإرادة الحقيقة، فدل تعجب النبي (ﷺ) وتبسمه على غفلةٍ حدثت من عدي (رضي الله عنه) مع سماعه الآية بتمامها.

المطلب الرابع

معالجة النبي (ﷺ)

أنزل الله تعالى على نبيه (ﷺ) القرآن الكريم، وجعل مهمته (ﷺ) البيان، قال جل ذكره: ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل:٤٤] وكان من وجوه تبيينه (ﷺ) للقرآن الكريم تصحيح الفهوم الخاطئة، وتصويب ما يقع فيه الصحابة الكرام من حمل القرآن الكريم على غير مراد قائله تعالى، وقد اتسم البيان النبوي الكريم في معالجة هذه القضية بالاختصار

(١) «مستخرج الطوسي على جامع الترمذي»: (٣/٣٢٦-٣٢٧)، باب: (ما جاء في بيان الفجر)، تحقيق: أنيس بن أحمد بن طاهر، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة المنورة - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

الشديد والإيجاز البليغ، مع الوفاء بالمعنى على أكمل وجه وأوفاه، بالإضافة إلى الوضوح والجلاء، فمع كونه موجزًا لا إطناب فيه إلا أنه وافٍ بالمعنى أتم الوفاء.

وثمت سمة أخرى امتاز بها البيان النبوي وهي إقامة الدليل على بيان الخطأ فيما ذهب إليه الصحابي الجليل عدي بن حاتم، فلم يكتف النبي (ﷺ) ببيان التفسير الصحيح، بل أبان له وجه القصور والخطأ فيما ذهب إليه من معنى؛ وذلك حين قال له: «إن وسادك إذًا لعريض أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادك» وذلك أن الخيط الأبيض والأسود هو الضوء والظلام المعترض في الأفق، لا يمكن بحال أن يكونا تحت وساد، ولو فرض جدلًا أنهما تحت وساد سيدنا عدي فكيف يكون عرض هذا الوساد؟ مما يلزم معه عرض قفاه.

وقد أشار الحافظ ابن كثير هنا إلى نكتة غفل عنها كثير من المفسرين الأمر الذي حدا بهم إلى القول بأن النبي (ﷺ) عرَّض بعدم فطنة سيدنا عدي بن حاتم في قوله: «إنك لعريض القفا» وأن هذا مما يستدل به على عدم فطنة المرء.

ويحسن بنا هنا إيراد كلام الحافظ ابن كثير في ذلك إذ يقول (رحمه الله):

«**ومعنى قوله:** «إن وسادك إذا لعريض» أي: إن كان يسع لوضع الخيط الأسود والخيط الأبيض المرادين من هذه الآية تحتها، فإنهما بياض النهار وسواد الليل. فيقتضي أن يكون بعرض المشرق والمغرب.

وهكذا وقع في رواية البخاري مفسرًا بهذا: «... قال: "إن وسادك إذا لعريض أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك"[1].

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٢٦/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ...}) حديث رقم: (٤٥٠٩) ومسلم في «صحيحه»: (٧٦٦/٢) كتاب: (الصيام) باب: (بَيَانِ أَنَّ الدُّخُولَ فِي الصَّوْمِ يَحْصُلُ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ...) حديث رقم: (١٠٩٠)، واللفظ للبخاري.

وجاء في بعض الألفاظ: «إنك لعريض القفا»[1] ففسره بعضهم بالبلادة؛ وهو ضعيف، بل يرجع إلى هذا؛ لأنه إذا كان وساده عريضًا فقفاه أيضًا عريض، والله أعلم. ويفسره رواية البخاري أيضًا:

حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن مطرف، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: "إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين". ثم قال: لا بل هو سواد الليل وبياض النهار»[2].

قلت: ومراعاة جناب النبوة الأفخم وما كان عليه النبي (ﷺ) من حسن خلق، ولين جانب، وكريم أخلاق، وتربية إلهية، وأوصاف نورانية، من مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[التوبة: ١٢٨] ومن مثل قوله تعالى: ﴿...وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ...﴿١٥٩﴾﴾[آل عمران: ١٥٩] يرجِّح ما ذهب إليه الحافظ ابن كثير (رحمه الله) من أنه ليس ثمت تعريض بقلة فطنة الصحابي الجليل عدي بن حاتم، والله تعالى أعلى وأعلم وأجل وأكرم.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٢٦/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ...}) حديث رقم: (٤٥١٠).

(٢) هو نفس الحديث السابق عند البخاري، ينظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير: (٥١٣/١) تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

المبحث الثاني

قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ...﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦٦]

روى الإمام البخاري في «صحيحه» بسنده إلى عبيد بن عمير، قال: قال عمر (رضي الله عنه) يومًا لأصحاب النبي (ﷺ): فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾[البقرة: ٢٦٦]؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر فقال: «قولوا: نعلم أو لا نعلم»، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: «يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك»، قال ابن عباس: ضربت مثلًا لعمل، قال عمر: «أي عمل؟» قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: «لرجل غني يعمل بطاعة الله (عز وجل)، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله»(١).

الدراسة والتحليل

تبين هذه الرواية ما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم من مدارسة القرآن وحرصهم على تفهم معانيه، حتى كان هذا الأمر حديثهم في مجالسهم، كما توضح بعض الروايات أن هذه الآية أسهرت سيدنا عمر بن الخطاب، وذلك فيما ذكره السيوطي في «الدر المنثور» وعزاه إلى عبد بن حميد وَابْن الْمُنْذر عَن ابْن عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ عمر بن الْخطاب: قَرَأت اللَّيْلَة آيَة أسهرتني ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣١/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: (قَوْلِهِ: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَاب}) حديث رقم: (٤٥٣٨).

...﴿٦٦﴾ [البقرة: ٢٦٦] فقرأها كلهَا فَقَالَ: مَا عَنى بهَا...إلخ»[١] وهذا إنما يدل على مركزية القرآن الكريم في حياتهم واهتمامهم بمعرفة تفسيره وعنايتهم الفائقة بمدارسته ما جعل (أمير المؤمنين) -مع انشغاله بأمر الخلافة- يسأل الصحابة الكرام ويتدارس معهم القرآن، ويمكن إجمال الحديث في أمور:

أولًا: بينت الرواية أن خفاء بعض المعاني القرآنية على الصحابة الكرام وعدم معرفتهم بالمراد من آية ما أمر حاصل وواقع، وأن خفاء المعنى قد يكون مرجعه عدم العلم بالتفسير، فهم لم يأثِروا في الآية شيئًا يبيِّن معناها، كما أنهم لم يعرفوا المراد منها باجتهاد واستنباط وإعمال فكر، وأن هذا قد عمَّ كلَّ من سألهم سيدنا عمر (رضي الله عنه)، فالرواية التي أخرجها الإمام الطبري تشير إلى عدم معرفة أحد من الناس تفسير هذه الآية، فقد أخرج بسنده عن عطاء، قال: سأل عُمر الناس عن هذه الآية فما وجد أحدًا يشفيه، حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا أمير المؤمنين، إنِّي أجد في نفسي منها شيئًا، قال: فتلفت إليه، فقال: تحوَّل ههنا، لِمَ تحقّر نفسك؟ ...»[٢].

ثانيًا: أشارت بعض روايات هذا الحديث إلى أن المرجع الرئيس عند الصحابة الكرام فيما خفي عليهم من معاني القرآن الكريم هو السماع والنقل عن رسول الله (ﷺ)، إذ هو (ﷺ) المبين لما في القرآن؛ مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]، يبين هذا المعنى الروايةُ التي أوردها السيوطي في «الدر المنثور» وفيها: «...

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٤٧/٢) للإمام جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت.

(٢) «تفسير الطبري»: (٥٤٤/٥ - ٥٤٥).

ولَكِن إِنَّمَا سَأَلت إِن كَانَ عِنْد أحد مِنْكُم علم وَسمع فِيهَا شَيْئا أَن يخبر بِمَا سمع، فَسَكَتُوا...» [1].

ثالثًا: تبين الرواية تفاوت الصحابة الكرام في معرفة تفسير القرآن الكريم فلم يكونوا على درجة واحدة، ومرجع هذا التفاوت على وجه العموم قد يكون سببه: سماعهم من النبي (ﷺ) كثرة وقلة، أو مدى معرفتهم بملابسات نزول القرآن الكريم والوقوف على الظروف المحيطة بنزوله كأسباب النزول وغيره، أو معرفتهم بكلام العرب، أو جودة قريحتهم واستنباطهم، فهم في كل ذلك ليسوا سواء.

أما أسباب خفاء المعنى هنا في هذه الآية فإنه يرجع إلى سببين:

الأول: أنهم لم يعلموا فيه شيئًا عن سيدنا رسول الله (ﷺ)، ولو علموا لأجابوا، وهذا سبب من أسباب خفاء المعنى لدى بعض الصحابة الكرام، وفي ذلك إشارة إلى أن النبي (ﷺ) لم يفسر جميع القرآن، إذ لو فسَّره جميعًا لكن عند أصحاب النبي (ﷺ) أثرٌ عنه (ﷺ) في معنى الآية التي سئلوا عنها، وبعيد أن يؤثر عن رسول الله (ﷺ) شيء فيها ويغيب عن جميع من سُئل .

الثاني: اختلافهم في جودة القريحة وحسن التفهم وقوة الاستنباط وإدراك المعنى الكامن وراء الألفاظ، وهو ما لم يكن موجودًا لدى مَن سألهم سيدنا عمر، وكان موجودًا عند سيدنا ابن عباس (رضي الله عنهما)، ولعل ذلك ببركة دعاء النبي (ﷺ) له بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[2].

---

(١) «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»: (٤٧/٢).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»: (٩٥/٣) حديث رقم (٢٣٩٧) من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرين، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

المبحث الثالث

قوله تعالى: ﴿...وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ...﴿٨٢﴾﴾[الأنعام: ٨٢]

روى الإمام البخاري (رحمه الله) في «صحيحه» بسنده عن علقمة، عن عبد الله (رضي الله عنه)، قال: «لما نزلت: ﴿...وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ...﴿٨٢﴾﴾[الأنعام: ٨٢] قال أصحابه: وأينا لم يظلم؟ فنزلت: ﴿...إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[لقمان: ١٣]»(١).

وبسنده -أيضًا- عن عبد الله (رضي الله عنه)، قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ...﴿٨٢﴾﴾[الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله (ﷺ)، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله (ﷺ): " إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: ﴿...إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[لقمان: ١٣]»(٢).

الدراسة والتحليل

هاتان روايتان تبينان جانبًا من الفهم غير الصحيح للقرآن الكريم، وتدلَّان على خفاء المعنى القرآني لدى الصحابة الكرام، وسؤالهم النبي (ﷺ) فيما أشكل عليهم، وكيف أبان لهم الرسول الكريم (ﷺ) وجه الصواب، والحديث حول هذا في ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** خفاء المعنى القرآني على الصحابة الكرام في تفسير هذه الآية.
- **المطلب الثاني:** أسباب خفاء المعنى القرآني الصحيح.
- **المطلب الثالث:** المعالجة النبوية الكريمة لفهم الصحابة الكرام.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٥٦/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ}) حديث رقم: (٤٦٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (١١٤/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم}) حديث رقم: (٤٧٧٦).

المطلب الأول
خفاء المعنى القرآني على الصحابة الكرام في تفسير هذه الآية

فهم الأصحاب الكرام رضوان الله عليهم أن المراد من الظلم في الآية العموم المطلق، وهو ترك ما أمر الله إتيانه، أو فعل ما أمر باجتنابه، وعلى هذا فإن الأمن في الآخرة إنما يكون لمن جَمَعَ هذين الأمرين: (الإيمان بالله، وعدم الظلم) ومن لم يكن كذلك فليس بآمن؛ والحصر مستفاد هنا من أمرين:

أولًا: تكرار إسناد الأمن إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ ثلاث مرات: **الأولى:** في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ حيث أسند جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ إلى الذين آمنوا. **والثانية:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ حيث أسند جملة ﴿لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ إلى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ والثالثة: ﴿لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ حيث أسند الأمن إلى الضمير (هم) العائد على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾.

ثانيًا: تقديم الجار والمجرور ﴿لَهُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾[1].

ولما كان تَحَقُّقُ ذلك أمرًا عسيرًا لا يُستطاع ولا يطيقه أحد، دفعهم هذا إلى قول ما قالوه، بل لعلهم قد رأوا أن ذلك معارض لما علموه من رحمة الله التي وسعت كل شيء، والتي بها يغفر الله تعالى لمن يشاء إلا الإشراك به سبحانه كما قال جلَّ وتقدس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ...٤٨﴾ [النساء: ٤٨] ومعارض أيضًا لما سمعوه من رسول الله (ﷺ) من مثله قوله

(١) ينظر في ذلك تفسير القرآن الحكيم المعروف بـ«تفسير المنار»: (٤٨٤/٧)، لمحمد رشيد رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م.

الكريم: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، كفارة لما بينهن، ما لم تغش الكبائر» [1]، وغير ذلك من الآثار التي تدل على رحمة الله بعباده.

ثمت معنى آخر قريب من هذا الذي فهمه الصحابة الكرام وقع لسيدنا علي بن أبي طالب (ﷺ)، ويوافق الصحابة الكرام فيما فهموه من أن الظلم في الآية عام يشمل كل ظلم، وهو فعل ما نهى الله عنه أو ترك ما أمر بفعله، لكن يختلف عنهم في المخاطب بالآية والمعنيِّ بها، فالمخاطب في الآية –فيما رُوي عن سيدنا علي (ﷺ)– هو خليل الله إبراهيم، فهي خاصة به وليست لأحد من هذه الأمة، فمن جاء من هذه الأمة يوم القيامة بذنب دون الشرك فهو تحت المشيئة الإلهية، إن شاء عفا الله عنه وإن شاء عذبه، وهذا ما رواه عنه الطبري في «تفسيره» وكذا ابن أبي حاتم في «تفسيره» قال: «هذه الآية لإبراهيم (ﷺ) خاصة، ليس لهذه الأمة منها شيء»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»: (٢٠٩/١) كتاب: (الطهارة) باب: (الْصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجُمُعَةِ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانِ إِلَى رَمَضَانَ مُكفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ) حديث رقم: (٢٣٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري»: (٥٠٣/١١)، «تفسير ابن أبي حاتم» المسمى: «تفسير القرآن العظيم»: (١٣٣٣/٤) تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة – ١٤١٩ هـ» واللفظ للطبري. وهذا الأثر أخرجه –أيضًا– الحاكم في «المستدرك» وذكره السيوطي في «الدر المنثور» وعزاه إلى الْفِرْيَابِيّ وَعبد بن حميد وَابْن أبي حَاتِم وَأَبي الشّيْخ وَالْحَاكِم وَابْن مرْدَوَيْه، وذكره المتقي الهندي في «كنز العمال»، وعزاه إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه، لكن جاء الأثر عند الحاكم والسيوطي والمتقي الهندي بلفظ: «نزلت هذه الآية في إبراهيم وأصحابه خاصة... » ينظر: «المستدرك على الصحيحين» لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ): (٣٤٦/٢)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى،=

قلت: في هذا الإسناد زياد بن حرملة – الراوي عن علي (ﷺ)–، قال عنه الشيخ أحمد شاكر: «وأما "زياد بن حرملة"، فلم أجد له ذكرًا في شيء من الكتب»، ثم حكم على هذا الأثر بالضعف؛ لجهالة زياد بن حرملة[1].وقد ضعف هذا الإسناد أيضًا الحافظ ابن حجر[2] وعلى هذا فإسناد هذا الأثر ضعيف لا تقوم به حجة.

المطلب الثاني
أسباب خفاء المعنى القرآني الصحيح

ثمت سببان أديا إلى عدم إدراك الصحابة الكرام لمراد الله تعالى من الآية الكريمة، والذي أنبأ عنه التفسير الصحيح لرسول الله (ﷺ)، والسببان هما:

أولًا: فهم لفظ الظلم في الآية على العموم المطلق الذي يحوي كل ظلم؛ والذي أفاد العموم في الآية الكريمة – لفظًا– ورود الظلم نكرةً في سياق النفي، والنكرة إذا جاءت في سياق النفي أفادت العموم، فلهذا فهم الصحابة منها العموم وهم من أهل اللسان؛ والحق أنه من باب العام الذي أريد به الخاص[3]، أي: وإن كان لفظ الشرك عامًّا يشمل كل ظلم، إلا أن المراد هنا نوعًا خاصًّا من الظلم، ألا وهو الشرك، وهذا يدل على أن اعتبار قواعد اللغة العربية وحدها في

=١٤١١ – ١٩٩٠، «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»: (٣٠٩/٣)، «كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال» للمتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ): (٤٠٧/٢)، تحقيق: بكري حياني – صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الخامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(١) ينظر: تحقيق الشيخ شاكر لـ«تفسير الطبري»: (٥٠٣/١١) الحاشية رقم: (٢).

(٢) ينظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني (٢٦٥/١٢) الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، صححه: محب الدين الخطيب.

(٣) ينظر تفصيل ذلك في «تفسير المنار» (٤٨٥/٧)

فهم القرآن الكريم غير كاف في التفسير وغير مؤدٍّ إلى المعنى القرآني الصحيح.

ثانيًا: عدم مراعاة السياق، فلم يراع الصحابة الكرام السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة، فوقعوا فيما وقعوا فيه؛ وذلك أن السياق قاضٍ بأن المراد من الظلم في الآية الكريمة هو الشرك؛ فإن قصة خليل الله إبراهيم (عليه السلام) مع قومه إنما وردت لتنفي الشركاء والأنداد والأوثان، فالحديث عن الشرك بالله بين سيدنا إبراهيم وقومه هو الأصل في هذا السياق، ثم ربط ذلك بالأمن، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨١]. هنا الحديث عن قوم أشركوا بالله، ويأتي سؤال خليل الله إبراهيم: ﴿...فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ثم تأتي الإجابة عقبها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[الأنعام: ٨٢].

المطلب الثالث
المعالجة النبوية الكريمة لفهم الصحابة الكرام

من المعلوم بداهة أن من صور بيان النبي (ﷺ) للقرآن الكريم: تصحيح ما قد يقع فيه الصحابة الكرام من تفسيرات ليست مرادة لله تعالى، ولما كان حمل الصحابة الكرام للظلم في الآية الكريمة على معناه العام مجافيًا للمعنى الصحيح للآية الكريمة، ومجانبًا لمراد الله تعالى منها، لزم البيان ممن وظيفته البيان، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]، وأول ما يلاحظ في البيان النبوي الكريم أنه (ﷺ) ردَّ الفهم الخاطئ بقوله: «إنه ليس بذاك»، ثم أبان لهم عن وجه الصواب

المتضمن الفهم الصحيح للآية الكريمة بقوله (ﷺ): «ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: ﴿...إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: ١٣]» وهذا التفسير النبوي الكريم أصل لتفسير القرآن بالقرآن؛ إذ ردَّ النبي (ﷺ) بعض القرآن – مما اشتبه فهمه على الصحابة الكرام– إلى بعض، فقد خصص العموم الوارد في قوله تعالى: ﴿...وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ...٨٢﴾[الأنعام: ٨٢] بقوله تعالى: ﴿...إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: ١٣][1]، وقد أشار الإمام ابن عطية (رحمه الله) إلى ذلك التخصيص بقوله: «ومن تخصيصه (ﷺ) الظلم في قوله تعالى: الّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بظلمٍ.... الآية حين فهم بعض الصحابة بأن المراد بالظلم العموم، فقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟.

فخصصه (ﷺ) بقوله: «ليس بذلك، إنما هو الشرك» – ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}»[2].

وبذا يكون العموم الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ ليس مطلقًا، بل هو من العام الذي أريد به الخاص.

(١) قد أشار الإمام البدر العيني رحمه الله إلى هذا التخصيص عند شرحه لحديث الإمام البخاري، وذكر أن الصحابة فهمت من الآية عموم الظلم، وحملوه على جميع أنواعه، فبين لهم الله تعالى –أي: على لسان نبيه– أن المراد من الظلم هنا نوع واحد منه، وهو الشرك. ينظر: «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» (٢١٦/١) للإمام بدر الدين العيني الحنفي (المتوفى: ٨٥٥ هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٨/١).

المبحث الرابع

قوله تعالى: ﴿...وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾ [التوبة: ٣٤]

روى الإمام البخاري بسنده عن زيد بن وهب، قال: مررت على أبي ذر بالربذة فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشأم فقرأت: ﴿...وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾[التوبة: ٣٤] قال معاوية: «ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب» قال: قلت: «إنها لفينا وفيهم»(١).

الدراسة والتحليل

الرواية السابقة التي أخرجها الإمام البخاري في صحيحه تشير إلى ما يأتي:

أولًا: إن خلافًا دار بين سيدنا أبي ذر وسيدنا معاوية (رضي الله عنهما) فيمن نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿...وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾[التوبة: ٣٤]، فيرى معاوية (رضي الله عنه) أنها خاصة بأهل الكتاب، فيما يرى أبو ذر (رضي الله عنه) أنه عامة تشمل أهل الكتاب والمسلمين جميعًا.

ثانيًا: يرى كلٌّ منهما أن معنى قوله تعالى: {**يُنفِقُونَهَا**} أي: ينفقون في سبيل الله ما زاد عن الحاجة، فقد خفي عنهما أن المراد من قوله تعالى: {**يُنفِقُونَهَا**}: ينفقون منها؛ لما سنذكره من أدلة عن قريب.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٦٥/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}) حديث رقم: (٤٦٦٠).

أما سيدنا معاوية فلو كان يرى أنَّ المراد من الإنفاق: جزء من المال، لردَّ على سيدنا أبي ذر بأن الزكاة مطهرة للمال بالغًا ما بلغ. وأما سيدنا أبو ذر فقد كان يرى تحريم الادخار فيما زاد على نفقة الإنسان وعياله وكان هذا مذهبًا له[1].

والكلام في هذا الحديث يتناول ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** مَن خفي عليهم المعنى الصحيح من الصحابة الكرام.
- **المطلب الثاني:** أسباب خفاء المعنى الصحيح.
- **المطلب الثالث:** بيان المعنى الصحيح للآية الكريمة.

المطلب الأول
مَن خفي عليهم المعنى الصحيح من الصحابة الكرام

الأمر في خفاء المعنى القرآني الصحيح[2] في هذه الآية الكريمة ليس قاصرًا على سيدنا معاوية وسيدنا أبي ذر وحدهما، فقد وقع مثلُ هذا لجمعٍ من الصحابة الكرام في حياة رسول الله (ﷺ)؛ وذلك ما رُوي عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿...وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ ...﴾[التوبة: ٣٤]، قال: كَبُر ذلك على المسلمين، فقال عمر (رضي الله عنه): أنا أفرِّج عنكم، فانطلق، فقال: يا نبي الله، إنه كبر على أصحابك هذه الآية، فقال رسول الله (ﷺ): «إن الله لم يفرض الزكاة، إلا ليطيب ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث لتكون لمن

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير»: (١٤٢/٤).

(٢) أردت بالمعنى القرآني الصحيح: أن الإنفاق إنما المراد به إنفاق جزء من المال لا كل المال.

بعدكم»، فكبَّر عمر، ثم قال له: «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرَّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»[1].

المطلب الثاني
أسباب خفاء المعنى الصحيح

من خلال ما تقدم يمكن إجمال أسباب خفاء المعنى الصحيح في أمور:

الأول: تنزيل القرآن على غير مواضعه، وهو ما وقع من سيدنا معاوية (رضي الله عنه) حيث ذهب إلى أن الآية إنما نزلت في أهل الكتاب، ولعل ما دفعه إلى صرف الآية إلى أهل الكتاب: أنه رأى أن قوله تعالى: ﴿... وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ ...﴾[التوبة: ٣٤] مذكور في سياق الحديث عن الأحبار والرهبان وعقب قوله تعالى: ﴿... إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ...﴿٣٤﴾﴾[التوبة: ٣٤].

الثاني: فهم قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾على ظاهره، والقول بأن المراد: إنفاق ما زاد على حاجة الإنسان، وهذا ما وقع لجمع من الصحابة، كما بينت الرواية السابق ذكرها، وذهاب عمر بن الخطاب إلى رسول الله (ﷺ).

---

(١) «سنن أبي داود» لأبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ): (١٢٦/٢)، كتاب الزكاة باب (في حقوق المال) حديث رقم (١٦٦٤) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، والحاكم في «المستدرك»: (٥٦٧/١)، حديث رقم: (١٤٨٧) وذكره الإمام النووي وقال: «رواه أبو داود عن عثمان بن أبي شيبة .... عن ابن عباس، وهذا إسناد صحيح» «خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام»: (١٠٧٦/٢)، حققه وخرج أحاديثه: حسين إسماعيل الجمل، الناشر: مؤسسة الرسالة – لبنان – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

الثالث: عدم الاعتبار بنصوص القرآن الكريم الأخرى المتحدثة عن الإنفاق، ثم الجمع بين هذه الآيات وفهم ما أشكل منها في ضوء ما لاح معناه وظهر.

الرابع: غياب بيان رسول الله (ﷺ) في الآية الكريمة عن سيدنا أبي ذر وسيدنا معاوية (رضي الله عنهما) إذ لو وصل إليهما لعلموا أن المطلوب إنفاقه هو جزء من المال لا كل المال، وحينها فلن يكون هناك خلاف بينهما في فهم الآية.

المطلب الثالث
بيان المعنى الصحيح للآية الكريمة

أولًا: فيمن نزلت الآية:

الصواب أن قوله تعالى: ﴿ ... وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾ ليس خاصًّا بأهل الكتاب -كما ذهب إلى هذا معاوية (رضي الله عنه)- بل هي عامة، والدليل على ذلك أمور:

الأول: أن لفظ (الذين) من الألفاظ المطلقة الدالة على العموم، وطالما أن اللفظ مطلق فيحمل على عمومه وإطلاقه[1].

الثاني: لو كان المراد بالخطاب الأحبار والرهبان خاصة لقال: (ويكنزون) عطفًا على ما تقدم من قوله: ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾، لكن قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ﴾ فيه استئناف معنى جديد، فهو من عطف الجمل على الجمل، وعلى ذلك فـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ﴾ كلام مستأنف، وليس داخلًا فيما سبقه من الكلام[2].

---

(١) ينظر: «تفسير المنار»: (٣٤٩/١٠).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» المعروف بـ«تفسير القرطبي»: (١٢٣/٨) للإمام القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

الثالث: في إجابة سيدنا رسول الله (ﷺ) عمرَ بن الخطاب وبيان المعنى الصحيح، وقوله (ﷺ): «إن الله لم يفرض الزكاة، إلا ليطيب ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم»[1] دليل على أن المسلمين مخاطبون بهذه الآية؛ إذ لو لم تكن نزلت فيهم لبين النبي (ﷺ) ذلك.

ثانيًا: المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾.

لا شك أن إجراء اللفظ على عمومه يفيد وجوب إنفاق جميع المال، بحيث لا يبقى للإنسان شيء من ماله، وهذا المعنى لا يستقيم؛ وذلك لما يأتي:

الأول: الأدلة القرآنية الكثيرة الدالة على أن الإنفاق إنما يكون من المال لا جميع المال، من مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾[البقرة: ٣] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم...۝٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ...۝٢٦٧﴾ [البقرة: ٢٦٧] وقوله تعالى: ﴿...وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ...۝٣٩﴾[النساء: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [الأنفال: ٣] وقوله تعالى: ﴿...وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً...۝٢٢﴾[الرعد: ٢٢] ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ...۝٣١﴾[إبراهيم: ٣١] وغير ذلك من الآيات التي تبين أن المراد إنفاقه جزء من المال لا كل المال، وعلى هذا يجب أن تحمل الآية التي معنا على أمثال تلك الآيات الكريمات.

الثاني: قول النبي (ﷺ) تفسيرًا للآية الكريمة: «إن الله لم يفرض الزكاة، إلا ليطيب ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم»[2]

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

فقوله (ﷺ): «ما بقي من أموالكم» واضح الدلالة في أن المسلم له أن يُبقي من ماله، ولا يأتي على جميع ماله بالإنفاق.

الثالث: قول النبي (ﷺ) لسعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) – وكانت له ابنة– وكان قد سأل رسول الله (ﷺ) وهو في مرضه أن يوصي بماله كله، فلم يرض، فسأله أن يوصي بالنصف فلم يرض، فسأله أن يوصي بالثلث فقال له: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ...» [1].

الرابع: قول النبي (ﷺ) لعمرو بن العاص (رضي الله عنه): «يا عمرو، نعم المال الصالح للرجل الصالح»[2].

---

(١) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣/٤) كتاب: (الوصايا) باب: (أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس) حديث رقم: (٢٧٤٢) تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، ومسلم في «صحيحه»: (١٢٥٠/٣) كتاب: (الوصية) باب: (الوصية بالثلث) حديث رقم: (١٦٢٨) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

(٢) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: (٢٩٨/٢٩) حديث رقم: (١٧٧٦٣)، من حديث عمرو بن العاص (رضي الله عنه). وأخرجه ابن حبان البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ) في «صحيحه»: (٦/٨) بلفظ: «يَا عَمْرُو، نِعْمَ المال الصالح مع الرجل الصالح» حديث رقم: (٣٢١٠)، ينظر صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، المسمى: «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

الخامس: فرض الزكاة وتعيين مقدارها، ولو كان المراد من الآية الكريمة إنفاق جميع المال لما كانت ثمت فائدة من شريعة الزكاة وتحديد النصاب وتقدير ما يخرج في الأموال المختلفة.

السادس: تشريع الميراث دليل على أن الإنسان له أن يبقي جزءًا من ماله لورثته ولو كان مطالَبًا بإنفاق جميع ماله، فما الفائدة من تشريع الميراث إذن وتبيين نصيب كل وارث؟!

وبهذا يتبين أن الآية عامة لا تختص بأهل الكتاب وأن قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ ليس جاريًا على ظاهره من إنفاق جميع المال بل المراد به إنفاق جزء من المال على ما بينته الشريعة الغراء.

المبحث الخامس

قولـــه تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ...﴿٨٠﴾﴾ [التوبة: ٨٠]

روى الإمام البخاري بسنده عن ابن عمر (رضي الله عنهما)، قال: لما توفي عبد الله بن أُبي، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله (ﷺ)، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله (ﷺ) ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله (ﷺ)، فقال: يا رسول الله تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله (ﷺ): " إنما خيرني الله فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ...﴿٨٠﴾﴾ [التوبة: ٨٠]، وسأزيده على السبعين "قال: إنه منافق، قال: فصلى عليه رسول الله (ﷺ)، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ...﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤] (١).

وروى بسنده عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما)، أنه قال: لما مات عبد الله بن أُبي بن سلول، دُعي له رسول الله (ﷺ) ليصلي عليه، فلما قام رسول الله (ﷺ) وثبت إليه، فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أُبي، وقد قال يوم كذا: كذا وكذا، قال: أعدِّد عليه قوله، فتبسم رسول الله (ﷺ) وقال: «أخِّر عني يا عمر» فلما أكثرت عليه قال: «إني خُيرت فاخترت، لو أعلم أني إن

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٦٧/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ}) حديث رقم: (٤٦٧٠) ومسلم في «صحيحه»: (١٨٦٥/٤) كتاب: (فضائل الصحابة) باب: (من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه) حديث رقم: (٢٤٠٠)، واللفظ للبخاري.

زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها» قال: فصلى عليه رسول الله (ﷺ)، ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرًا، حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ... ﴿٨٤﴾﴾[التوبة: ٨٤] إلى قوله: ﴿...وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾[التوبة: ٨٤] قال: فعجبت بعدُ من جرأتي على رسول الله (ﷺ) والله ورسوله أعلم(١).

وروى بسنده عن ابن عمر (رضي الله عنهما)، أنه قال: لما توفي عبد الله بن أُبي، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله (ﷺ) فأعطاه قميصه، وأمره أن يكفنه فيه، ثم قام يصلي عليه فأخذ عمر بن الخطاب بثوبه، فقال: تصلي عليه وهو منافق، وقد نهاك الله أن تستغفر لهم؟ قال: "إنما خيرني الله – أو أخبرني الله – فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ...﴿٨٠﴾﴾ [التوبة: ٨٠] فقال: سأزيده على سبعين، قال: فصلى عليه رسول الله (ﷺ) وصلينا معه، ثم أنزل الله عليه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾[التوبة: ٨٤] (٢).

الدراسة والتحليل

تصرح الروايات الثلاث بعدم رضا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عما همَّ رسول الله (ﷺ) بفعله من الصلاة على عبد الله بن أُبي، ومراجعته إياه؛ لحسبانه (رضي الله عنه) أن ذلك يتنافى مع قول الله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ

(١)أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٦٧/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ}) حديث رقم: (٤٦٧١).

(٢)أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٦٨/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ}) حديث رقم: (٤٦٧٢).

﴿مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ...﴿٨٠﴾﴾[التوبة: ٨٠] وكان إنكاره لهذا الأمر شديدًا حتى ورد في بعض الروايات أنه قال: «فعجبت بعدُ من جرأتي على رسول الله (ﷺ) والله ورسوله أعلم». ويمكن إجمال القول حول هذه الروايات في ثلاثة مطالب، هي:

- **المطلب الأول:** وجه الدلالة على خفاء المعنى في الروايات السابقة.
- **المطلب الثاني:** أسباب خفاء المعنى.
- **المطلب الثالث:** الفهم النبوي الكريم للآية.

المطلب الأول
وجه الدلالة على خفاء المعنى في الروايات السابقة

موطن الشاهد من الروايات على خفاء المعنى القرآني لدى سيدنا عمر (رضي الله عنه): إنكاره رضي الله عنه القائم على فهمه للآية الكريمة، فهو (رضي الله عنه) لم يفهم من الآية إلا وجهًا واحدًا؛ وهو أنه لا ينبغي لرسول الله (ﷺ) أن يستغفر لمثل عبد الله بن أُبي؛ مما حدا به إلى مراجعة رسول الله (ﷺ)، وقد خفي عنه (رضي الله عنه) ما أبانت عنه عبارة سيد الخلق (ﷺ): «إني خُيرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها».

المطلب الثاني
أسباب خفاء المعنى

مرجع خفاء معنى الآية الكريمة عند سيدنا عمر أمران[1]:

الأول: اعتبار أن (أو) في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ تفيد التسوية بين الاستغفار وعدمه.

والصواب أن (أو) هنا للتخيير وليست للتسوية، والدليل على ذلك أمران:

(١) ينظر: فتح الباري: (٣٣٨/٨).

(أ) قول النبي (ﷺ) «إني خُيرت فاخترت» وليس بعد كلام رسول الله (ﷺ) كلام.

(ب) ذكر ابن هشام أن (أو) تفيد التخيير إذا وقعت بعد طلب وقبل ما يمتنع فيه الجمع[1]، وهنا في الآية الكريمة وقعت بعد طلب، وهو قولـــــــه تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ﴾ وقبل ممتنع، وهو الجمع بين الاستغفار وعدمه.

الثاني: أن العدد المذكور في قوله تعالى: ﴿...إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ...﴿٨٠﴾﴾[التوبة:٨٠] القصد منه المبالغة، وأن العدد هنا ليس مقصودًا بعينه.

والصواب أن العدد هنا له مفهوم، وأنه ما قُصد به المبالغة؛ إذ الأصل أن يحمل العدد على الظاهر ما لم يأت صارف يصرفه إلى غير ذلك[2].

المطلب الثالث
الفهم النبوي الكريم للآية

إن المعنى الصحيح للآية الكريمة المستفاد من البيان النبوي الكريم القولي منه والفعلي، هو أن الآية تفيد التخيير بين الاستغفار وتركه، وأن العدد هنا ليس مقصودًا به المبالغة، بل مراد به حقيقة العدد؛ يقول الإمام البيضاوي في تفسيره: «وذلك لأنه (ﷺ) فَهِم من السبعين العدد المخصوص؛ لأنه الأصل، فجوز أن يكون ذلك حدًّا يخالفه حكمُ ما وراءه»[3].

---

(١) ينظر: «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» (ص٨٧)، تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م.

(٢) ينظر: فتح الباري: (٣٣٩/٨).

(٣) «تفسير البيضاوي»: (٩١/٣).

ويقول الحافظ ابن حجر (رحمه الله): «فحجة المتمسك من القصة بمفهوم العدد صحيح وكون ذلك وقع من النبي (ﷺ) متمسكاً بالظاهر على ما هو المشروع في الأحكام إلى أن يقوم الدليل الصارف عن ذلك لا إشكال فيه»[1].

(١) فتح الباري: (٨/٣٣٩).

المبحث السادس

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ...﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠]

روى الإمام البخاري بسنده عن ابن أبي مليكة قال: قال ابن عباس (رضي الله عنهما): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ...﴿١١٠﴾﴾[يوسف: ١١٠] خفيفة، ذهب بها هناك، وتلا: ﴿...حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[البقرة: ٢١٤]. فلقيت عروة بن الزبير فذكرت له ذلك:

فقال: قالت عائشة (رضي الله عنها): «معاذ الله، والله ما وعد الله رسوله من شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يموت، ولكن لم يزل البلاء بالرسل، حتى خافوا أن يكون من معهم يكذبونهم» فكانت تقرؤها: **(وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا)** مثقلة(١).

وروى بسنده عن عروة بن الزبير، عن عائشة (رضي الله عنها)، قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ...﴿١١٠﴾﴾[يوسف: ١١٠] قال: قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ قالت عائشة: «كذِّبوا» قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذَّبوهم فما هو بالظن؟ قالت: «أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك» فقلت لها: وظنوا أنهم قد كُذِبوا، قالت: «معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها» قلت: فما هذه الآية؟ قالت: «هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم، وصدقوهم فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذَّبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذَّبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك»(٢).

---

(١) هذان حديثان أخرجهما البخاري في «صحيحه»: (٢٦/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم...}) برقم: (٤٥٢٤، ٤٥٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٧٧/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: (قَوْلِهِ: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ}) برقم: (٤٦٩٥).

وبسنده عن عروة: فقلت: لعلها كُذِبوا مخففة، قالت: «معاذ الله» نحوه[1].

الدراسة والتحليل

أفادت الروايات السابقة أن ثمت استدراكًا وتعقيبًا من أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها) على ما رُوي عن سيدنا ابن عباس (رضي الله عنهما) من قراءة قوله تعالى: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾مخففة، وأنها كانت تقرؤها مثقلة هكذا {كُذِّبوا}، وبناء على القراءتين قد اختلفت الفهوم في المعنى القرآني، وخفاء بعضه؛ مما أدى إلى الإنكار والاستعاذة بالله تعالى من قبل السيدة عائشة (رضي الله عنها)، فنستعين الله تعالى في بيان ذلك، وسيكون الحديث في أربعة مطالب:

- **المطلب الأول:** القراءات المتواترة في قوله تعالى: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ [يوسف: ١١٠]
- **المطلب الثاني:** المعاني المحتملة على كل من القراءتين.
- **المطلب الثالث:** معاني الآية الواردة عن الصحابة الكرام (ابن عباس وابن مسعود وعائشة (رضي الله عنهم))
- **المطلب الرابع:** خفاء المعنى القرآني على أم المؤمنين (رضي الله عنها).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٧٨/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: (قَوْلِهِ: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ}) برقم: (٤٦٩٦).

المطلب الأول

القراءات المتواترة في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾

في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ قراءتان متواترتان:

الأولى بالتخفيف: (كُذِبوا) وقرأ بها أبو جعفر، والكوفيون (عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف العاشر).

الثانية: بالتشديد (كُذِّبوا) وقرأ بها بقية القراء العشرة وهم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو البصري، وابن عامر، ويعقوب(١).

المطلب الثاني
المعاني المحتملة على كلٍّ من القراءتين

أما القراءة الأولى ﴿كُذِبُواْ﴾ بالتخفيف فتحتمل خمسة معان:

المعنى الأول: وظن المرسَلُ إليهم من الأمم المكذبة أن رسلَ الله الكرام قد كَذَبوهم فيما أخبروهم عن الله من النبوة، ومن أن النصر للأنبياء والمؤمنين(٢). وإنما يتأتى هذا المعنى على أن الضمائر كلَّها في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ وفي قوله: ﴿أَنَّهُمۡ﴾ وفي قوله: ﴿كُذِبُواْ﴾ تَرْجِعُ إلى المرسَل إليهم، وهذا المعنى

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (المتوفى: ٣٢٤هـ): (ص: ٣٥١)، تحقيق: شوقي ضيف، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ، «حجة القراءات» لابن زنجلة (المتوفى: حوالي ٤٠٣هـ): (ص: ٣٦٦)، تحقيق: سعيد الأفغاني، الناشر: دار الرسالة. «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (المتوفى: ٨٣٣ هـ): (٢٩٦/٢)، تحقيق: علي محمد الضباع (المتوفى ١٣٨٠ هـ)، الناشر: المطبعة التجارية الكبرى.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري»: (٢٩٦/١٦)، «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون»: (٥٦٥/٦).

منسوب إلى ابن عباس (ﷺ) في رواية عنه[1] على ما يأتي تفصيله قريبًا، ومروي أيضًا عن سعيد بن جبير فيما يرويه عنه الإمام الطبري بسنده قال: «سأل فتى من قريش سعيد بن جبير، فقال له: يا أبا عبد الله، كيف تقرأ هذا الحرف، فإني إذا أتيت عليه تمنَّيت أن لا أقرأ هذه السورة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ... ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠] ؟ قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدِّقوهم، وظن المرسَلُ إليهم أن الرُّسُل كَذَبوا. قال: فقال الضحاك بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلًا يدعى إلى علم فيتلكَّأ!! لو رحلت في هذه إلى اليمن كان قليلا!» [2].

فإن قيل: كيف عاد الضمير على الأمم المكذبة ولم يتقدم لهم ذكر؟ قلت: أجاب العلماء عن ذلك بجوابين:

---

(١) وذلك فيما أخرجه النسائي **(ت: ٣٠٣هـ)** في «السنن الكبرى»: (١٣٦/١٠) كتاب (التفسير) باب (حتى إذا استيأس الرسل) حديث رقم: (١١١٩٣)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة»: (٢٩٨/١٠) حديث رقم: (٣١٧) عن ابن عباس (ﷺ) أَنَّهُ قَرَأَ {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} [يوسف: ١١٠]، خَفِيفَةً، قَالَ: «إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِمْ، وَظَنَّ قَوْمُهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ كَذَبُوهُمْ» واللفظ للنسائي. ينظر: «السنن الكبرى» للإمام النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، «الأحاديث المختارة» للإمام ضياء الدين المقدسي (المتوفى: ٦٤٣هـ)، دراسة وتحقيق: د عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

(٢) «تفسير الطبري»: (٣٠٠/١٦).

١- تقدم ذكر الأمم المكذبة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ ...﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩]، يقول الإمام الطبري (رحمه الله) بعد ما ساق هذه الآية: «... فكان ذلك دليلًا على أن إياس الرسل كان من إيمان قومهم الذين أهلكوا، وأن المضمر في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾، إنما هو من ذكر الذين من قبلهم من الأمم الهالكة وزاد ذلك وضوحًا أيضًا، إتباعُ الله في سياق الخبر عن الرسل وأممهم قوله: ﴿...فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ ...﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠]»[(١)].

٢- أن ذكر الرسل يقتضي ذكر المرسل إليهم، أشار إلى ذلك الإمام أبو علي الفارسي، بقوله: «فإن قلت: كيف يجوز أن يحمل الضمير في ظنّوا على أنه للمرسل إليهم الرسل، والذي تقدم ذكرهم الرسل دون المرسل إليهم؟ قيل: إن ذلك لا يمتنع، لأن ذكر الرسل، يدلّ على المرسل إليهم لمقارنة أحد الاسمين للآخر، ولما في لفظ الرسل من الدلالة على المرسل إليهم» [(٢)].

المعنى الثاني: وظن المرسَلُ إليهم من الأمم المكذبة أن رسلَ الله الكرام قد كُذبوا فيما وُعِدوا، وهذا المعنى إنما يتأتى على عود الضميرَ في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ على المُرْسَل إليهم، وعود الضمير في قوله: ﴿أَنَّهُمۡ﴾ وفي قوله: ﴿كُذِبُواْ﴾ على الرسل؛ ففاعل الظن هم الأمم المكذبة، والظن واقع على الرسل. وفي هذا المعنى يقول الإمام الرازي (رحمه الله): «... ومعنى التخفيف من

(١) «تفسير الطبري»: (٣٠٤/١٦).

(٢) «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (ت: ٣٧٧هـ): (٤٤٣/٤)، تحقيق: بدر الدين قهوجي – بشير جويجابي، الناشر: دار المأمون للتراث – دمشق /بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ -١٩٩٣م.

وجهين: أحدهما: أن الظن واقع بالقوم، أي: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان القوم، فظن القوم أن الرسل كُذِبوا فيما وُعِدوا من النصر والظفر...»[1].

المعنى الثالث: وظنت الرسل أنهم قد كُذِبوا من قبل أنفسهم أو من قبل رجائهم، وتقرير هذا المعنى أن يقال: لما تأخر النصر على الأنبياء ظنوا أنهم قد كُذِبوا من قبل أنفسِهم إذ توهمت النصر، أو كُذِبوا من قِبَل رجائهم إذ تعلق بالنصر، ولكنه كان رجاء كاذبًا، فالظن راجع إلى الأنبياء والكذب راجع إلى النفس أو إلى الرجاء.

وقد أبانت عبارة الإمام الزمخشري عن هذا المعنى، وذلك حين قال: «... حتى إذا اسْتَيْئَسوا من النصر وظنُّوا أنهم قد كُذِبوا، أي: كَذَّبَهم أنفسُهم حين حَدَّثَتْهم أنهم يُنْصَرون أو رجاؤُهم لقولهم رجاءٌ صادق ورجاءٌ كاذب، والمعنى: أن مدَّة التكذيب والعداوةِ من الكفار، وانتظارَ النصر من الله وتأميلَه قد تطاولت عليهم وتمادَتْ، حتى استشعروا القُنوط، وتَوَهَّموا ألاَّ نَصْرَ لهم في الدنيا فجاءهم نَصْرُنا»[2].

المعنى الرابع: وظنت الرسل الكرام أن من أعطاهم الرضا في العلانية – أي: من آمن بهم– قد كَذَبَهم في السر؛ وذلك لطول البلاء على الأتباع، وهذا إنما يتأتى على عود الضمائر الثلاثة في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ وفي قوله: ﴿أَنَّهُمۡ﴾ وفي قوله: ﴿كُذِبُواْ﴾ على الرسل، والظن على بابه، وهو قول مروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) فيما أورده عنه الإمام السيوطي في كتابه «الدر المنثور في

(١) «مفاتيح الغيب»: (٥٢١/١٨) للإمام فخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ.

(٢) «تفسير الزمخشري»: (٥١٠/٢).

التفسير بالمأثور» وعزاه إلى الزبير بن بكار في كتابه «الأخبار الموفقيات»(١): «عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن مُعَاوِيَة قَالَ لَهُ يَوْمًا: إِنِّي قد ضربتني أمواج الْقُرْآن البارحة فِي آيَتَيْنِ لم أعرف تأويلهما فَفَزعت إِلَيْك، قَالَ: وَمَا هما قَالَ: قَول الله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ...﴾ [الأنبياء: ٨٧] وَأَنه يفوتهُ إِن أَرَادَهُ، وَقَول الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ...﴾ [يوسف: ١١٠] كَيفَ هَذَا يظنون أَنه قد كذبهمْ مَا وعدهم؟! فَقَالَ ابْن عَبَّاس: أما يُونُس فَظن أَن لن تبلغ خطيئته أَن يقدر الله عَلَيْهِ فِيهَا الْعقَاب، وَلم يشك أَن الله إِن أَرَادَهُ قدر عَلَيْهِ، وَأما الْآيَة الْأُخْرَى فَإِن الرُّسُل استيأسوا من إِيمَان قَومهمْ وظنوا أَن من أعطاهم الرضا فِي الْعَلَانِيَة قد كَذَبَهمْ فِي السِّرّ؛ وَذَلِكَ لطول الْبلَاء. وَلم تستيئس الرُّسُل من نصر الله وَلم يَظُنُّوا أَنه كذبهمْ مَا وعدهم. فَقَالَ مُعَاوِيَة: فرجت عني يا ابْن عَبَّاس فرج الله عَنْك»(٢).

المعنى الخامس: وظنت الرسلُ أنهم قد كُذِبوا فيما وُعِدوا من النصر، وذلك المعنى إنما يتأتى على أن تعود الضمائرُ كلُّها على الرسل، والظنُّ على بابه من الترجيح، وهذا القول نسبه كثير من المفسرين إلى ابن عباس وابن مسعود (رضي الله عنهم)

(١) الزبير بن بكار هو: أبو عبد الله الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام (رضي الله عنه)، المتوفى (٢٥٦هـ) وكتابه «الأخبار الموفَّقِيَّات» هو كتاب أخبار ومرويات تاريخية يرويها المؤلف بسنده المتصل، والكتاب مطبوع بتحقيق: د سامي مكي العاني، ط: عالم الكتب. ينظر: مقدمة تحقيق كتاب «الأخبار الموفَّقِيَّات» (ص: ١٣ وما بعدها) ولكني لم أقف على هذا الأثر الذي ذكره الإمام السيوطي في هذا الكتاب.

(٢) «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»: (٥/٦٦٦ – ٦٦٧)، وقد ذكر هذا الأثر مختصرا أبو شامة المقدسي (ت: ٦٦٥هـ) في «إبراز المعاني من حرز الأماني»: (ص: ٥٣٨)، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، ط: دار الكتب العلمية.

بناء على ما فهموه من الرواية عنهم(١)، وسيأتي بيانه وافيًا ومعالجته عن قريب.

وهذا المعنى يستحيل في حق الأنبياء (عليهم السلام)؛ إذ هم خير الورى وأكملهم وأفضلهم عند الله قدرًا، وأجلهم منزلة، وأعرفهم بالله وبموعوده، وقد أنكر المفسرون هذا المعنى أيما إنكار، وعباراتهم في هذا واضحة لا لبس فيها:

قال الإمام ابن جرير (رحمه الله): «وهذا تأويلٌ وقولٌ، غيرُه من التأويل أولى عندي بالصواب، وخلافه من القول أشبه بصفات الأنبياء، والرسل إن جاز أن يرتابوا بوعدِ الله إياهم ويشكُّوا في حقيقة خبره، مع معاينتهم من حجج الله

---

(١) أما الرواية عن ابن عباس فقد رواها البخاري فيما أخرجه بسنده عن ابن أبي مليكة قال: قال ابن عباس (رضي الله عنهما): {حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا} [يوسف: ١١٠] خفيفة، ذهب بها هناك، وتلا: {حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب} [البقرة: ٢١٤]... إلخ وهي الرواية التي بدأنا بها الحديث والتي أنكرتها السيدة عائشة (رضي الله عنها)، وقد سبق تخريجها. وقد قال الإمام الطبري: «وقد ذهب قوم ممن قرأ هذه القراءة -أي: قراءة التخفيف-، إلى غير التأويل الذي اخترنا، ووجّهوا معناه إلى: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، وظنَّتِ الرسل أنهم قد كُذِبوا فيما وُعِدُوا من النصر... وقد ذُكِر هذا التأويل الذي ذكرناه أخيرًا عن ابن عباس لعائشة، فأنكرته أشد النُكرة فيما ذكر لنا». ينظر: «تفسير الطبري»: (١٦/٣٠٥ - ٣٠٦).

أما الرواية عن ابن مسعود فقد ذكرها سعيد بن منصور في «سننه» وابن الجعد في «مسنده» بسندهما عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ [ص:٤١٨] {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} [يوسف: ١١٠] خَفِيفَةً. واللفظ لسعيد بن منصور، ينظر: «التفسير من سنن سعيد بن منصور»: (٥/٤١٧) تحقيق سعيد آل حميد، الناشر: دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م «مسند ابن الجعد» (ص: ٣٧٧)، تحقيق: عامر أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة نادر - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

وأدلته ما لا يعاينه المرسَل إليهم فيعذروا في ذلك، فإن المرسَلَ إليهم لأوْلى في ذلك منهم بالعذر، وذلك قول إن قاله قائلٌ لا يخفى أمره»[١].

وقال الإمام أبو علي الفارسي: «وإن ذهب ذاهب إلى أن المعنى: ظنّ الرسل أن الذي وعد الله أممهم على لسانهم قد كُذِبوا أو كَذبوا فقد أتى عظيمًا لا يجوز أن ينسب مثله إلى الأنبياء، ولا إلى صالحي عباد الله، وكذلك من زعم أن ابن عباس ذهب إلى أن الرسل قد ضعفوا فظنوا أنهم قد أخلفوا، لأن الله لا يخلف الميعاد، ولا مبدّل لكلماته[٢].

ويقول الإمام الرازي (رحمه الله): «والوجه الثاني: أن يكون المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كذبوا فيما وعدوا وهذا التأويل منقول عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قالوا: وإنما كان الأمر كذلك لأجل ضعف البشرية. إلا أنه بعيد، لأن المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب، بل يخرج بذلك عن الإيمان فكيف يجوز مثله على الرسل»[٣].

- **وأما القراءة الثانية –قراءة التشديد– {كُذِّبوا} فتحتمل معنيين:**

<u>المعنى الأول</u>: وظنت رسل الله الكرام –لما طال بهم البلاء وتأخر نصر الله– أن من كان معهم من المؤمنين قد كذَّبوهم فيما أخبروا عن الله، ويتأتى هذا المعنى على إعادة الضمائر الثلاثة –في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ وفي قوله: ﴿أَنَّهُمۡ﴾ وفي قوله: {كُذِّبوا}– إلى الرسل الكرام، ويكون الظن على بابه، وهذا المعنى هو المروي عن السيدة عائشة (رضي الله عنها) فيما رواه الإمام البخاري[٤]، وهذا الوجه

(١) «تفسير الطبري»: (٣٠٦/١٦).

(٢) «الحجة للقراء السبعة»: (٤٤٣/٤).

(٣) «مفاتيح الغيب»: (٥٢١/١٨).

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٧٧/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: (قَوْلِهِ: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ}) برقم: (٤٦٩٥).

وصفه الإمام الرازي بأنه أحسن الوجوه في معنى الآية؛ إذ يقول (رحمه الله): «... والثاني: أن يكون الظن بمعنى الحسبان والتقدير، حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم فظن الرسل أن الذين آمنوا بهم كذَّبوهم وهذا التأويل منقول عن عائشة (رضي الله عنها)، وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية»(١).

وهذا الوجه والذي قبله -الوجه الخامس على قراءة التخفيف- سواء في المعنى، لكن هذا على قراءة التشديد، والذي قبله على قراءة التخفيف، كما أشار إلى ذلك صاحب كتاب «إبراز المعاني من حرز الأماني»(٢).

المعنى الثاني: وأيقنت رسل الله الكرام أنَّ أممهم الذين قد أُرسِلوا إليهم قد كذَّبوهم فيما جاءوا عن الله تكذيبًا لا يكون معه إيمان؛ فدعوا عليم بالهلاك، ويتأتى هذا المعنى على إعادة الضمائر الثلاثة -في قوله: ﴿ وَظَنُّوٓاْ ﴾ وفي قوله: ﴿أَنَّهُمۡ﴾ وفي قوله: {كُذِّبوا}- إلى الرسل الكرام، ويكون الظن بمعنى اليقين، وهذا المعنى هو إحدى الروايات عن ابن عباس (رضي الله عنهما) وهو مروي عن عطاء، وقتادة، والحسن كما قال الإمام الواحدي: «قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ... ١١٠ ﴾ [يوسف: ١١٠] قال ابن عباس: يئسوا من قومهم أن يؤمنوا {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا} أيقنوا أنَّ قومهم قد كذَّبوهم. وهذا قول عطاء، وقتادة، والحسن»(٣).

---

(١) «مفاتيح الغيب»: (٥٢١/١٨).

(٢) «إبراز المعاني من حرز الأماني»: (ص: ٥٣٩).

(٣) «الوسيط في تفسير القرآن المجيد»: (٦٣٨/٢)، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: مجموعة من الباحثين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م. =

المطلب الثالث
معاني الآية الواردة عن الصحابة الكرام (ابن عباس وابن مسعود وعائشة (ﷺ))

١- ابن عباس (ﷺ):

أما ابن عباس (ﷺ) فقد ورد عنه في معنى الآية أقوال، منها ما صرح به وجعله بياناً وتفسيرًا للآية وهو واضح ولائح لا خفاء معه ولا لبس فيه، ومنها ما فهمه الرواة من كلامه، إذ كلامه فيها مجمل يحتاج إلى بيان:

أما الصريح منها فأربعة أقوال:

الأول: وظن المرسَلُ إليهم من الأمم المكذبة أن رسلَ الله الكرام قد كَذَبوهم فيما أخبروهم عن الله من النبوة، ومن أن النصر للأنبياء والمؤمنين، وهذا إنما يتأتى على قراءة التخفيف، مع عود الضمائر الثلاثة في قوله: {وَظَنُّوٓاْ} وفي قوله: {أَنَّهُمۡ} وفي قوله: {كُذِبُواْ} على المرسل إليهم، وذلك فيما رُوي عن ابن عباس (ﷺ) أَنَّهُ قَرَأَ {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا}، خَفِيفَةً، قَالَ: «إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِمْ، وَظَنَّ قَوْمُهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ كَذَبُوهُمْ»[1].

=وقد أورد الإمام الطبري بسنده عن قتادة، عن الحسن – وهو قول قتادة –: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، وظنوا أنهم قد كُذِّبوا"، أي: استيقنوا أنه لا خير عند قومهم، ولا إيمان (جاءهم نصرنا)، وبسنده عن معمر، عن قتادة: (حتى إذا استيأس الرسل)، قال: من قومهم (وظنوا أنهم قد كذِّبوا)، قال: وعلموا أنهم قد كُذِّبوا (جاءهم نصرنا) ينظر: «تفسير الطبري»: (٣٠٩/١٦).

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى»: (١٣٦/١٠) كتاب (التفسير) باب (حتى إذا استيأس الرسل) حديث رقم: (١١١٩٣) والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة»: (٢٩٨/١٠) حديث رقم: (٣١٧) عن ابن عباس (ﷺ)، واللفظ للنسائي.

الثاني: وظنت الرسل الكرام أن من أعطاهم الرضا في العلانية -أي: من آمن بهم- قد كَذَبَهم في السر؛ وذلك لطول البلاء على الأتباع، وهذا إنما يتأتى على قراءة التخفيف، مع عود الضمائر الثلاثة في قوله: {وَظَنُّوٓاْ} وفي قوله: {أَنَّهُمۡ} وفي قوله: {كُذِبُواْ} على الرسل، والظن على بابه، وقد نقله عن ابن عباس (ﷺ) الإمام السيوطي في كتابه «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» في قصته مع سيدنا معاوية (ﷺ)، وأشار إليه أيضًا أبو شامة المقدسي في «إبراز المعاني من حرز الأماني»، وقد تقدم ذكره عن قريب فلا داعي لإعادته هنا(١).

الثالث: وأيقنت رسل الله الكرام أنَّ أممهم الذين قد أُرسِلوا إليهم قد كذَّبوهم فيما جاءوا عن الله، وهو على قراءة التشديد، وقد عزاه إلى ابن عباس (ﷺ) الإمامُ الواحدي في «التفسير الوسيط» حيث قال: «قوله: **{حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ}** [يوسف: ١١٠] قال ابن عباس: يئسوا من قومهم أن يؤمنوا **{وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِّبُواْ}** أيقنوا أنَّ قومهم قد كذَّبوهم»(٢).

الرابع: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كُذِبوا من قبل من أرسلهم، فالظن راجع إلى المرسل إليهم والضميران في قوله: {أَنَّهُمۡ} وفي قوله: {كُذِبُواْ} عائد إلى الرسل، وقد نقل هذا المعنى ابن أبي حاتم فيما رواه بسنده عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ مِنْ أَنْ يُسْلِمَ قَوْمُهُمْ وَظَنَّ قَوْمُهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا(٣).

---

(١) «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»: (٦٦٦/٥ - ٦٦٧)، وقد ذكر هذا الأثر مختصرا أبو شامة المقدسي (ت:٦٦٥هـ) في «إبراز المعاني من حرز الأماني»: (ص: ٥٣٨).

(٢) «التفسير الوسيط» للواحدي: (٦٣٨/٢).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم»: (٢٢١١/٧).

وأما غير الصريح فوجه واحد وهو:

الخامس: وظنت الرسلُ أنهم قد كُذِبوا فيما وُعِدوا من النصر من قِبَل ربهم، وذلك المعنى يأتي على قراءة التخفيف على أن تعود الضمائرُ كلُّها على الرسل، والظنُّ على بابه من الترجيح، وهذا قول لم يصرح به ابن عباس (رضي الله عنهما)، وإنما قاله عنه الناقلون، بناء على ما فهموه من الروايات التي نذكرها الآن:

ما رواه البخاري فيما أخرجه بسنده عن ابن أبي مليكة قال: قال ابن عباس (رضي الله عنهما): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ...﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠] خفيفة، ذهب بها هناك، وتلا: ﴿...حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤][1].

وفي رواية الطبراني عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: {**حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا**} [يوسف: ١١٠] قَالَ: «كَانُوا بَشَرًا فَضَعُفُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ أُخْلِفُوا»، وَقَرَأَ {حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ} [البقرة: ٢١٤][2].

وعند الطبري عن ابن جريج، قال: أخبرني ابن أبي مليكة، عن ابن عباس، قرأ: {وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ}، خفيفة، قال ابن جريج: أقول كما يقول: أُخْلِفوا. قال عبد الله: قال لي ابن عباس: كانوا بشرًا. وتلا ابن عباس: ﴿...حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤] قال ابن جريج: قال ابن أبي مليكة: ذهب بها إلى أنهم ضَعُفوا فظنوا أنهم أُخْلِفوا[3].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٢٦/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم...}) برقم: (٤٥٢٤).

(٢) «المعجم الكبير»: (١٢٤/١١) للإمام أبي القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

(٣) «تفسير الطبري»: (٣٠٥/١٦).

هذه الروايات عن ابن عباس (ﷺ) ليس فيها تصريح بأن الرسل قد ظنت أنهم كُذبوا فيما وُعدوا به من النصر، وإنما قد يُفهم من ظاهرها هذا المعنى الخاطئ، ولذا فقد استبعد هذا القول عن ابن عباس فريقٌ من العلماء، وأنكروا وروده عنه؛ قال الإمام الواحدي: «قال أبو بكر بن الأنباري: وهذا غير معول عليه من جهتين: إحداهما: أن التفسير فيه ليس عن ابن عباس، لكنه من متأول تأوله عليه...»[1] وتوقف في صحته الإمام الزمخشري بقوله: «... فإن صح هذا عن ابن عباس، فقد أراد بالظنّ: ما يخطر بالبال ويهجس في القلب... إلخ»[2]. ونحن هنا مع هذه الروايات إزاء احتمالين:

الاحتمال الأول: أن الظن واقع من الرسل، ولكنه ليس بالظن الذي هو ارتياب في وعد الله؛ فإن الأنبياء (عليهم السلام) منزهون عن ذلك!! ولا يخفى مثله على ابن عباس (ﷺ)، ولذا فقد أجاب العلماء عما قد يقع في الذهن من معنى خاطئ بعدة أجوبة:

منها: أن الرُّسُل عِنْد امتداد الْبَلَاء وإبطاء النَّصْر دخلتهم الرِّيبَة حَتَّى توهموا أَن مَا جَاءَهُم من الْوَحْي كَانَ حسبانا مِنْهُم ووهمًا، فارتابوا بِأَنْفسِهِم وظنوا عَلَيْهَا الْغَلَط، كَقَوْلِك: كذب سَمْعِي وبصري[3] فالظن هنا راجع إلى نفوس الأنبياء لا إلى موعود الله.

---

(١) «التفسير البسيط»: (٢٧٠/١٢)، للإمام الواحدي، النيسابوري، (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق مجموعة من الباحثين، الناشر: عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط: الأولى، ١٤٣٠هـ.

(٢) «تفسير الزمخشري»: (٥١٠/٢).

(٣) وهو قول أبي سليمان الخطابي، ينظر: «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٣٩٣/٢) لأبي الفرج ابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن – الرياض.

ومنها: أن المراد أنه خطر بقلب الرسل فصرفوه عن أنفسهم، أو المعنى قربوا من الظن كما يقال بلغت المنزل إذا قربت منه[١].

وقريب من ذلك: أن الظن هنا ليس على بابه من ترجيح أحد المحتملين على الآخر، بل الظن هنا هو ما يخطر بالبال ويهجس في القلب مِنْ شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية، ذكر هذا الإمام الزمخشري (رحمه الله)[٢].

ومنها: أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر أن يتخلف النصر، لا من تهمة بوعد الله، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثًا ينقض ذلك الشرط، فكان الأمر إذا طال واشتد البلاء عليهم دخلهم الظن من هذه الجهة[٣].

الاحتمال الثاني: أن الظن واقع من أتباع الرسل الذين آمنوا بهم، أي: وظن أتباع الرسل أن الأنبياء قد كُذبوا فيما وُعِدوا، وهذا هو الاحتمال الأقوى والأرجح في توجيه معنى هذه الرواية وبيان المراد منها.

وسبب ترجيح هذا المعنى أنَّ كلام ابن عباس محتمل أن يكون الظن عائدًا على الرسل الكرام ويحتمل أن يكون الظن عائدًا على أتباع الرسل، وليس في كلام ابن عباس –في هذه الروايات – ما يرجح أحد الاحتمالين، فأصبحت هذه الروايات مجملة تحتاج إلى بيان، أو ترجيح أحد المعنيين على الآخر، وكان مما يرجح أن الذين ظنوا هم أتباع الرسل ما يأتي:

أولًا: ما رواه الطبري بسنده عن عبد الرحمن بن معاوية، عن ابن عباس: «{وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ}خفيفة، وتأويلها عنده: وظن القومُ أن الرسل قد كُذِبُوا»[٤].

---

(١) وهو قول أبي نصر القشيري، ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (٣٦٨/٨).

(٢) «الكشاف»: (٥١٠/٢).

(٣) وهو قول الحكيم الترمذي، ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (٣٦٨/٨).

(٤) «تفسير الطبري»: (٢٩٨/١٦).

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله): «... ويحتمل أن يكون[1] أتْباعهم، ويؤيده ما رواه الطبري بأسانيد متنوعة من طريق عمران بن الحارث وسعيد بن جبير وأبي الضحى وعلي بن أبي طلحة والعوفي كلهم عن ابن عباس في هذه الآية قال: أيس الرسل من إيمان قومهم وظن قومُهم أن الرسل كُذِبوا»[2].

وجاء في «تفسير السمعاني»: «وَالْقَوْل الثَّانِي -وَهُوَ الصَّحِيح، وَهُوَ مَنْقُول أَيْضا عَن ابْن عَبَّاس- أَن معنى الْآيَة: وَظن مَن آمن بالرسل، أَن الرُّسُل قد كُذِبُوا بِالتَّخْفِيفِ»[3].

ثانيًا: لا يظن بصحابي جليل كابن عباس (رضي الله عنهما) أن يعتقد في أنبياء الله اعتقادًا كهذا، وإنما اللائق بصحابة رسول الله (ﷺ) - لا سيما علماؤهم- تنزيه رسل الله الكرام عن كل ما لا يليق، وهذا مما لا يليق بآحاد المسلمين فضلًا عن أنبياء الله تعالى.

قال الإمام الخطابي: «... أما الذي لا يُشَكُّ فيه من مذهبه[4] أنه لم يُجَوِّز على الرسل صلوات الله عليهم أن يكذِّبوا بالوحي الذي يأتيهم من قبل الله (عز وجل)، وأن يشكُّوا في صدق الخبر عنه أو يرتابوا»[5].

---

(١) أي: فاعل {وظنوا}.

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣٦٨/٨).

(٣) «تفسير السمعاني»: (٧٣/٣) لأبي المظفر السمعاني (المتوفى: ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

(٤) أي: ابن عباس (رضي الله عنهما).

(٥) «أعلام الحديث» للإمام الخطابي (ت: ٣٨٨هـ): (١٨١٣/٣) تحقيق: د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، الناشر: جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

أمَّا ما ذكر في الروايات عن ابن عباس (ﷺ) من مثل قوله: «كَانُوا بَشَرًا فَضَعُفُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ أُخْلِفُوا»، وَقَرَأَ {**حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ...**}[البقرة: ٢١٤][1] **أو ما قاله ابن جريج:** «أقول كما يقول: أُخْلِفوا». أو ما قاله ابن أبي مليكة: «ذهب بها إلى أنهم ضَعُفوا فظنوا أنهم أُخْلِفوا»[2].

أقول: يجب أن يحمل المجمل من كلامه (ﷺ) على المبيَّن عنه في الروايات الأخرى، وأن يُرَدَّ بعض الكلام إلى بعض، وبالنظر فيما نُقل عنه نجد أن كل ذلك عائد إلى الأتباع لا إلى الرسل، وهو ما فهمه كبار الحفاظ والأئمة (ﷺ)، يقول الحافظ ابن حجر: «ولا يُظَنُّ بابن عباس أنه يجَوِّزُ على الرسول أن نفسه تحدثه بأن الله يخلف وعده، بل الذي يُظَنُّ بابن عباس أنه أراد بقوله: «كانوا بشرًا... إلى آخر كلامه» مَنْ آمن من أتباع الرسل، لا نفس الرسل، وقول الراوي عنه: «ذهب بها هناك»، أي: إلى السماء، معناه: أن أتباع الرسل ظنوا أن ما وعدهم به الرسل على لسان الملك تخلف؛ ولا مانع أن يقع ذلك في خواطر بعض الأتباع»[3].

٢- عبد الله بن مسعود (ﷺ)

وأما ابن مسعود (ﷺ) فقد ورد عنه في معنى الآية ما رواه الإمام الطبري في تفسيره بسنده عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ...﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠]، قال: استيأس الرسل من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظن قومُهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كُذِبوا، بالتخفيف»[4].

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني: (١٢٤/١١).

(٢) «تفسير الطبري»: (٣٠٥/١٦).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٣٦٨/٨ – ٣٦٩).

(٤) تفسير الطبري (٣٠٣/١٦).

والمعنى على هذه الرواية أن الظن عائد إلى الأمم المكذبة، فهم الذين ظنوا أن الرسل قد كَذبوهم، وهم قد كُذِبوا من قبل الرسل، وذلك يتأتى على قراءة التخفيف على أن تعود الضمائر الثلاثة (وظنوا – أنهم – كُذِبوا) على الأمم المكذبة.

وقد ورد عنه (ﷺ) معنى آخر في هذه الآية وذلك فيما رواه الطبري بسنده عن مسروق، أن رجلًا سأل عبد الله بن مسعود: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ...﴿١١٠﴾﴾ قال: «هو الذي تكره: مخففةً»[1].

تشير الرواية إلى القراءة التي يقرأ بها ابن مسعود وهي قراءة التخفيف {كُذِبوا} وكان من الممكن حملها على رواية الإمام الطبري السابقة والتي تفيد أن الظن عائد إلى الأمم المكذبة وأنهم قد كُذِبوا من قبل الرسل، لولا قول ابن مسعود جوابًا لمن سأله: «هو الذي تكره» فإن ذلك يشير إلى أحد معنيين:

الأول: أن الظن واقع من الرسل وأنهم ظنوا أنهم قد أُخلفوا وكُذبوا ما وُعدوا من قِبَل ربهم.

الثاني: أن الظن واقع من قبل أتباع الرسل، وأنهم ظنوا أن الرسل قد كُذِبوا ما وُعدوه من ربهم.

ومقام الصحابة الكرام – ومنهم سيدنا عبد الله بن مسعود (ﷺ)– منزه عن أن نجيز في حقهم المعنى الأول: وهو أن الرسل ظنت أنهم أُخلفوا ما وُعدوه من ربهم، وما قيل في تنزيه عبدالله بن عباس (ﷺ) عن هذا القول يقال هنا أيضًا؛ فلم يبق إلا الاحتمال الثاني وهو أنه أراد بقوله: «هو الذي تكره» أنَّ الظن واقع من قبل أتباع الرسل، وأنهم ظنوا أن الرسل قد كُذبوا ما وُعدوه من ربهم.

(١) تفسير الطبري (٣٠٦/١٦).

يقول الحافظ ابن حجر (رحمه الله): «وقد جاء عن ابن مسعود شيء موهم كما جاء عن ابن عباس، فروى الطبري من طريق صحيح عن مسروق عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ...﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠] مخففة، قال أبو عبد الله هو الذي يكره» وليس في هذا أيضًا ما يقطع به على أن ابن مسعود (رضي الله عنه) أراد أن الضمير للرسل بل يحتمل أن يكون الضمير عنده لمن آمن من أتباع الرسل؛ فإن صدور ذلك ممن آمن مما يكره سماعه، فلم يتعين أنه أراد الرسل»[1].

٣- أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها)

المأثور عن أم المؤمنين عائشة في بيان هذه الآية معنى واحد، وهو أن الظنَّ واقع من الرسل الكرام، ظنوا أنَّ من اتبعهم من المؤمنين -لشدة البلاء وتأخر النصر- قد كذَّبوهم، وهذا المعنى إنما يتأتى على قراءة التشديد {كُذِّبوا}، وعود الضمائر الثلاثة في قوله: {وَظَنُّوٓاْ} وفي قوله: {أَنَّهُمْ} وفي قوله: {كُذِبُواْ} على الرسل، والظن على بابه، وهذا المعنى ما صرحت به رواية البخاري (رحمه الله) إذ أخرج بسنده عن عروة بن الزبير، عن عائشة (رضي الله عنها)، قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قال: قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ قالت عائشة: «كُذِّبوا» قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذَّبوهم فما هو بالظن؟ قالت: «أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك» فقلت لها: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾، قالت: «معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها» قلت: فما هذه الآية؟ قالت: «هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم، وصدقوهم فطال عليهم البلاء،

(١) فتح الباري لابن حجر (٣٦٩/٨).

واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذَّبهم من قومهم، وظنت الرسلُ أن أتباعَهم قد كذَّبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك»(١).

المطلب الرابع

خفاء المعنى القرآني على أم المؤمنين (رضي الله عنها)

تقدم الحديث عن المعاني المحتملة في قراءة التخفيف، وقلنا: إنها خمسة معان، أربعة منها مقبولة سائغة، ومعنى واحد غير مقبول، أما المقبول منها:

الأول: وظن المرسَلُ إليهم من الأمم المكذبة أن رسلَ الله الكرام قد كَذَبوهم فيما أخبروهم عن الله من النبوة، ومن أن النصر للأنبياء والمؤمنين.

الثاني: وظن المرسَلُ إليهم من الأمم المكذبة أن رسلَ الله الكرام قد كُذبوا فيما وُعِدوا.

الثالث: وظنت الرسل أنهم قد كُذِبوا من قِبَل أنفسهم أو من قِبَل رجائهم.

الرابع: وظنت الرسل الكرام أن من أعطاهم الرضا في العلانية -أي: من آمن بهم- قد كَذَبَهم في السر.

وأما غير المقبول فهو:

الخامس: وظنت الرسلُ أنهم قد كُذِبوا فيما وُعِدوا من النصر من قبل ربهم.

بعد هذا البيان نقول: يتبين لكل ذي رأي أن إنكار السيدة عائشة (رضي الله عنها) لقراءة التخفيف {كُذِبوا} إنما هو راجع إلى أنها فهمت منها المعنى الخامس، وهو المعنى الممتنع في حق الأنبياء (عليهم السلام)، وخفي عليها بقية الوجوه الصحيحة - المحتملة على هذه القراءة- المنقولة عن ابن عباس وغيره، والتي قرر صحتها وتخريجها على قواعد العربية كبار المفسرين. ولما كانت أم المؤمنين شديدة

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٧٧/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: (قَوْلِهِ: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ}) برقم: (٤٦٩٥).

الغيرة على مقام الأنبياء -وهذا شأن جميع الصحابة الكرام- ردَّت قراءة التخفيف؛ لخفاء المعاني الصحيحة التي تتأتى على هذا القراءة على ما سبق بيانه وتفصيله، وأنها لم تفهم منها سوى أنها تفيد أن الأنبياء ظنوا أن الله أخلفهم ما وعدهم؛ ولذا بادرت بالقول: «معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها».

ولم تكن السيدة عائشة (رضي الله عنها) من خفي عليها هذه المعاني وحدها، بل خفيت أيضًا على سيدنا معاوية [1] وانظر إلى قوله: «كَيفَ هَذَا؟ يظنون أَنه قد كذبهمْ مَا وعدهم؟!» يتبين لك أنه لم يفهم من قراءة التخفيف إلا وجهًا واحدًا: أنَّ الظن عائد إلى الرسل وأنهم ظنوا أن قد كُذِبوا من قِبَلِ ربهم فيما وعدهم من النصر -وهو ما فهمته السيدة عائشة أيضًا- ولذا حار في أمره، حتى قال لابن عباس: «إِنِّي قد ضربتني أمواج الْقُرْآن البارحة فِي آيَتَيْنِ لم أعرف تأويلهما فَفَزِعت إِلَيْك» وهذا صريح في أنه لم يفهم من الآية إلا وجهًا واحدًا استعظم صدور مثله عن الأنبياء (عليهم السلام)، وخفي عليه بقية المعاني الصحيحة المحتملة، ففزع إلى ابن عباس (رضي الله عنهما) حتى أزال عنه ما أهمه.

---

(١) كما تقدم ذكر حديثه مع ابن عباس وقوله له: إِنِّي قد ضربتني أمواج الْقُرْآن البارحة فِي آيَتَيْنِ لم أعرف تأويلهما فَفَزِعت إِلَيْك، قَالَ: وَمَا هما قَالَ: قَول الله: {وَذَا النُّون إِذْ ذهب مغاضبا فَظن أَن لن نقدر عَلَيْهِ} وَأَنه يفوتهُ إِن أَرَادَهُ وَقَول الله: **(حَتَّى إِذا استيأس الرُّسُل وظنوا أَنهم قد كذبُوا)** (يُوسُف آيَة ١١٠) كَيفَ هَذَا يظنون أَنه قد كذبهمْ مَا وعدهم؟! فَقَالَ ابْن عَبَّاس: أما يُونُس فَظن أَن لن تبلغ خطيئته أَن يقدر الله عَلَيْهِ فِيهَا الْعقَاب وَلم يشك أَن الله إِن أَرَادَهُ قدر عَلَيْهِ وَأما الْآيَة الْأُخْرَى فَإِن الرُّسُل استيأسوا من إِيمَان قَومهمْ وظنوا أَن من أعطاهم الرضا فِي الْعَلَانِيَة قد كَذَبَهمْ فِي السِّرّ؛ وَذَلِكَ لطول الْبلَاء. وَلم تستيئس الرُّسُل من نصر الله وَلم يَظُنُّوا أَنه كذبهمْ مَا وعدهم. فَقَالَ مُعَاوِيَة: فرجت عني يا ابْن عَبَّاس فرج الله عَنْك» ينظر: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»: (٦٦٦/٥ - ٦٦٧)، وقد ذكر هذا الأثر مختصرا أبو شامة المقدسي في «إبراز المعاني من حرز الأماني»: (ص: ٥٣٨).

والذي حدا بالسيدة عائشة وسيدنا معاوية (رضي الله عنهما) فيما ذهبا إليه هو مراعاة جناب النبوة الأفخم، وهو أمر عظيم بلا شك؛ لكن طالما أنَّ للآية وجهًا من المعنى الصحيح بل وجوهًا صحيحة فلا مانع من قبولها والمصير إليها ولا يسوغ إنكارها، الأمر الذي جعل أم المؤمنين (رضي الله عنها) تردُّ قراءة التخفيف، وهي قراءة متواترة، كما سبق الحديث عن ذلك.

ويعود السبب في خفاء هذه المعاني على السيدة عائشة وسيدنا معاوية (رضي الله عنهما) إلى:

أولًا: عدم ثبوت قراءة التخفيف لديهما؛ إذ لو ثبتت هذه القراءة لديهم عن رسول الله (ﷺ) ما كان لهم أن ينكروا.

ثانيًا: إعادة الضمائر في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ على الرسل الكرام واعتقاد أنها لا تحتمل إلا وجهًا واحدًا، وقصرها عليه، دون غيره. والله تعالى أعلى وأعلم.

المبحث السابع

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ...﴿٣﴾﴾ [الجمعة: ٣]

روى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، قال: كنا جلوسًا عند النبي (ﷺ)، فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ...﴿٣﴾﴾ [الجمعة: ٣] قال: قلت: من هم يا رسول الله؟ – فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا– وفينا سلمان الفارسي، وضع رسول الله (ﷺ) يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا، لناله رجال – أو رجل – من هؤلاء»[1].

الدراسة والتحليل

تبين تلك الرواية التي أوردها الإمام البخاري نوعًا من خفاء المعنى لدى الصحابة الكرام؛ إذ خفي على أبي هريرة (رضي الله عنه) مَن المراد بقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ...﴿٣﴾﴾ [الجمعة: ٣] ولما كان رسول الله (ﷺ) هو المرجع الأول لدى الصحابة الكرام في تفسير القرآن الكريم وبيان ما غمض عليهم فهمه وبعد عنهم إدراكه سأل أبو هريرة (رضي الله عنه) سيدَنا رسول الله (ﷺ)؛ حتى يعلم ما غاب عنه من معنى الآية الكريمة، والحديث هنا عن مطلبين:

- **المطلب الأول:** البيان النبوي الكريم.
- **المطلب الثاني:** الأدلة على عموم الآية الكريمة وعدم اختصاصها بقوم دون غيرهم.

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في «صحيحه»: (١٥١/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: (قَوْلِه: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ}) حديث رقم: (٤٨٩٧) ومسلم في «صحيحه»: (١٩٧٢/٤) كتاب: (فضائل الصحابة) باب: (فضل فارس) حديث رقم: (٢٥٤٦)، واللفظ للبخاري.

المطلب الأول
البيان النبوي الكريم

النبي (ﷺ) مبلغ عن الله الكتاب والبيان معًا، قال تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤] وفي هذا الحديث الذي رواه البخاري ظهرت الحاجة إلى تبيين رسول الله (ﷺ) لما خفي معناه من القرآن الكريم، ويمكن إجمال القول في أمور:

أولًا: إن هذا الوجه من وجوه تبيين النبي (ﷺ) يندرج تحت تعيين المبهم، إذ تحدثت الآية عن أقوام بوصف ولم تعين من هم، أو تبين المراد بهم، فجاء البيان النبوي الكريم ليحدد المراد بهم، وهو وجه شهير من وجوه بيان السنة المشرفة للقرآن الكريم، ومن الأمثلة عليه: ما جاء عن أُبي بن كعب (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول: «**{وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}** [الفتح: ٢٦] قال: لا إله إلا الله»[(١)] وما ورد عن أنس (رضي الله عنه) عن رسول الله (ﷺ) في قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ}** [إبراهيم: ٢٤] قال: «هي النخلة» **{وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ}** [إبراهيم: ٢٦] قال: «هي الحنظل»[(٢)] .

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»: (١٧٦/٣٥) حديث رقم: (٢١٢٥٥) من حديث أبي بن كعب (رضي الله عنه).

(٢) أخرجه الترمذي في «سننه»: (٢٩٥/٥) حديث رقم: (٣١١٩) من حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه)، للإمام أبي عيسى الترمذي (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

ثانيًا: هذا التفسير النبوي الكريم تفسير بالمثال ولا يقصد به الحصر والإحصاء، وعلى حد تعبير صاحب «التحرير والتنوير»: «... تفسير بالجزئي على وجه المثال؛ ليفيد أن {آخرين} صادق على أمم كثيرة، منها: أمة فارس»[(١)].

وهذا النوع من التفسير قد يكون مظهرًا للخلاف عند بادئ النظر، وقد يُظن التعارض بين أقوال المفسرين، فقد أورد المفسرون في معنى الآية جملة أقوال، منها: أن المراد بهم العجم، وهو مروي عن مجاهد[(٢)]، ومنها: إنما المراد بهم جميع من دخل في الإسلام من بعد النبيِّ (ﷺ) كائنًا من كان إلى يوم القيامة[(٣)]، وعن ابن عمر أنهم أهل اليمن[(٤)] وقال: عكرمة ومقاتل: هم التابعون[(٥)]. فمن تعجل النظر ظن وجود التعارض، والحق أنه ليس من التعارض والخلاف في شيء، فإن رسول الله (ﷺ) لم يقصد تعيين هذا المعنى بعينه، بل ذكره على أنه مثال مندرج تحت هذا النوع، أو أنه أحد أفراد هذا المذكور لا أنه كل الأفراد،

---

(١) «التحرير والتنوير»: (٢١١/٢٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري»: (٣٧٤/٢٣).

(٣)«تفسير الطبري»: (٣٧٥/٢٣).

(٤) الهداية الى بلوغ النهاية لأبي محمد مكي بن أبي طالب (المتوفى: ٤٣٧هـ) : (٧٤٥٩/١٢)، تحقيق مجموعة من الباحثين، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

(٥) «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» لأبي إسحاق الثعلبي (المتوفى: ٤٢٧هـ): (٣٠٦/٩)، تحقيق: علي عاشور، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

وهكذا يحمل كلام المفسرين من الصحابة والتابعين، فليس في كلامهم مخالفة لكلام النبي (ﷺ)، ولا وجود لتعارض بين هذه الآراء جميعًا.

ثالثًا: يلاحظ في البيان النبوي الكريم استثارة العقل بضرب المثال دون النص على كل ما تحتمله الآية من معان، وفي هذا النوع من البيان يظهر جليًّا حرص النبي (ﷺ) على أن يربي في نفوس أصحابه –وأمته من بعدهم– تدبر القرآن الكريم والوصول من الجزئيات إلى الكليات ومن الفروع إلى الأصول، ومن الأمثلة إلى ما يشبهها من خلال المعنى الجامع لها ولغيرها.

رابعًا: في البيان النبوي الكريم إشارة إلى توسيع معاني القرآن الكريم، وعدم حصرها في وجه واحد، وهذا من إعجاز القرآن المجيد؛ فإن النبي (ﷺ) ما حصر المعنى في شيء، وما أراد الحصر، بل إنه لم يحصر ذلك في الفرس أيضًا، فإن قوله (ﷺ): «لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من قوم هذا» مثالٌ لما ورائه في كل من ينطبق عليه نفس الوصف.

المطلب الثاني

الأدلة على عموم الآية وعدم اختصاصها بقوم دون غيرهم

ثمة أدلة على أن الآية الكريمة عامة ولا تختص بجنس دون جنس أو قوم دون آخرين، ومن هذه الأدلة:

١- لفظ {آخرين} لفظ عام، فيبقى على عمومه، يقول الإمام الطبري (رحمه الله): «لأن الله (عز وجل) عمّ بقوله: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} كلَّ لاحق بهم من آخرين، ولم يخصص منهم نوعًا دون نوع، فكلّ لاحق بهم فهو من الآخرين الذين لم يكونوا في عداد الأوّلين»[1].

---

(1) «تفسير الطبري»: (٣٧٥/٢٣).

٢- إن النبي (ﷺ) في قوله: «لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من قوم هذا» جوابًا لمن سأل- لم يصرح بلفظ يقتضي حصر المراد ب {آخرين} في قوم سلمان (رضي الله عنه)، بل غاية ما هنالك أن سلمان وقومه ممن تشملهم الآية الكريمة[١].

٣- قول النبي (ﷺ) في الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» عن سهل بن سعد الساعدي (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابي، رجالًا ونساء من أمتي يدخلون الجنة ... بغير حساب ثم قرأ {وآخرين منهم لما يلحقوا بهم} يعني بقية من بقي من أمة محمد (ﷺ)»[٢] ومعلوم أن أصحاب رسول الله (ﷺ) لم يكونوا من جنس واحد بل أجناس مختلفة. والله تعالى أعلى وأعلم وأجل وأكرم.

(١) ينظر: «التحرير والتنوير»: (٢١٢/٢٨).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم»: (٣٣٥٥/١٠).

المبحث الثامن

قوله تعالى: ﴿...وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ ...﴿٤﴾﴾ [التحريم: ٤]

روى الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: «كنت أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله (ﷺ)، فمكثت سنة، فلم أجد له موضعًا حتى خرجت معه حاجًّا، فلما كنا بظهران ذهب عمر لحاجته، فقال: أدركني بالوضوء فأدركته بالإداوة، فجعلت أسكب عليه الماء، ورأيت موضعًا فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ قال ابن عباس: فما أتممت كلامي حتى قال: «عائشة، وحفصة»[(١)].

الدراسة والتحليل

بينت الرواية السابقة صورة مما خفي على الصحابة الكريم مما له تعلق بالقرآن الكريم، فقد خفي على ابن عباس (رضي الله عنهما) اسما اللتين تظاهرتا على رسول الله (ﷺ)، وهذا النوع من الخفاء داخل تحت مسمى (مبهمات القرآن)، والمبهمات هي ما تضمنه القرآن الكريم من ذِكرِ من لم يُسَمِّه الله فيه باسمه العَلَم: من نبي، أو وليّ، أو غيرهما: آدمي، أو مَلَك، أو بلد، أو كوكب، أو شجر، أو حيوان له اسم عَلَم، قد عُرف عند نقلة الأخبار، وغيرهم من العلماء الأخيار[(٢)].

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في «صحيحه»: (١٥٨/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما}) حديث رقم: (٤٩١٥) ومسلم في «صحيحه»: (١١١٠/٢) كتاب: (الطلاق) باب: (فِي الْإِيلَاءِ، وَاعْتِزَالِ النِّسَاءِ، وَتَخْيِيرِهِنَّ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ}) حديث رقم: (١٤٧٩)، واللفظ للبخاري.

(٢) ينظر: «التعريف والإعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام في القرآن»، لأبي القاسم السهيلي: (صـ: ١٦)، ط: دار الكتب العلمية، ط: ١، سنة: ١٤٠٧هـ.

السبب في خفاء المعنى

السبيل الأوحد إلى معرفة (مبهمات القرآن) هو النقل عن رسول الله (ﷺ) أو الصحابة الكرام الذين عاصروا التنزيل، ولا مدخل في ذلك للاجتهاد وإعمال العقل أو الاستنباط كما أشار إلى ذلك الإمام السيوطي (رحمه الله) [1] ولعل السبب في خفاء هذا على ابن عباس (رضي الله عنهما): عدم معرفته بسبب النزول؛ وقد يرجع هذا إلى صغر سنه، فقد انتقل الرسول الأعظم (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى وعُمُر ابنِ عباسٍ (رضي الله عنهما) ثلاث عشرة سنة، فقد كان مولده قبل الهجرة بثلاث سنين[2].

وفي هذا الحديث إشارات

الأولى: حديث ابن عباس هذا أصل في علم (مبهمات القرآن) كما أشار إلى ذلك الإمام السيوطي (رحمه الله)[3].

---

(١) ينظر: «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» (ص: ٨)، تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا، الناشر: مؤسسة علوم القرآن، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٢م.

(٢) ينظر: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (ت: ٤٣٠هـ): (١٧٠٠/٣)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

(٣) ينظر: «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» (ص: ٨)، وعبارة الإمام السيوطي: «قال العلماء: هذا أصل في علم المبهمات». قلت: والأصل الأول لعلم مبهمات القرآن يرجع إلى ما ورد عن النبي (ﷺ)، ومثاله: تعيين المبهم في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ...﴿٦٥﴾﴾[الكهف: ٦٥] بأنه الخضر وذلك في الحديث المروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، وهو حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٢٦/١) كتاب: (العلم) باب: (ما ذكر في ذهاب موسى (عليه السلام) في البحر إلى الخضر) حديث رقم: (٧٤) ومسلم في «صحيحه»: (١٨٧٤/٤) كتاب: (الفضائل) باب: (من فضائل الخضر عليه السلام) حديث رقم: (٢٣٨٠).

الثانية: هذا الحديث دالٌّ على عناية ابن عباس الفائقة بكل ما يتصل بالقرآن الكريم، ولنا أن ننظر إلى قول ابن عباس في إحدى الروايات: «لم أزل حريصًا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج رسول الله (ﷺ)...» (١).

الثالثة: لم تمنعه مهابة عمر (رضي الله عنه) من سؤاله والاستفادة منه في أمر يتعلق بالقرآن، ففي بعض الروايات يقول ابن عباس (رضي الله عنهما): «يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أسألك عن أمر وإني لأهابك، قال: لا تهبني، فقال: من اللتان تظاهرتا على رسول الله (ﷺ)؟ قال: عائشة وحفصة» (٢).

الرابعة: في حديث ابن عباس هذا إشارة إلى أن العلم يطلب من أصوله، أو بعلو إسناد كما يقول المحدِّثون، متى وجد إلى هذا سبيلًا، فإن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) – مكث عامًا يريد أن يسأل عمر (رضي الله عنه) عن اللتين تظاهرتا على رسول الله (ﷺ)، فلماذا اختار عمر بالذات والأمر –لا شك– يعلمه كثير من الصحابة، إن ذلك قد توضحه رواية الإمام الطبراني في «المعجم الأوسط» وفيها أن ابن عباس قال لعمر (رضي الله عنه): «أخبرني عن قول الله (عز وجل): ﴿...وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ ...﴾ [التحريم: ٤] من هما؟» فقال له عمر (رضي الله عنه): «لا تسأل أحدا أعلم بذلك مني... إلخ» (٣).

---

(١) «تفسير الطبري»: (٢٣/٤٨٤).

(٢) «تفسير الطبري»: (٢٣/٤٨٦).

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» للإمام أبي القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ) (٨/٣٢٤) برقم: (٨٧٦٤) من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة.

المبحث التاسع

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾

[الانشقاق ٧-٨]

روى الإمام البخاري بسنده عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله (ﷺ): «ليس أحد يحاسب إلا هلك» قالت: قلت: يا رسول الله، جعلني الله فداءك، أليس يقول الله (عز وجل): ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٧-٨] قال: «ذاك العرض يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك»[(١)].

الدراسة والتحليل

هذه الرواية التي رواها الإمام البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) تبين جانبًا من جوانب خفاء المعنى القرآني الصحيح لدى الصحابة الكرام، والذي كان من آثاره توهم التعارض بين القرآن الكريم والسنة النبوية، واستشكال الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾[الانشقاق: ٧-٨] وبين قول النبي (ﷺ): «ليس أحد يحاسب إلا هلك»، ويمكننا إجمال القول في ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** وجه التعارض المتوهم بين الآية والحديث.
- **المطلب الثاني:** سبب خفاء المعنى لدى أم المؤمنين.
- **المطلب الثالث:** خصائص البيان النبوي الكريم.

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في «صحيحه»: (١٦٧/٦) كتاب: (تفسير القرآن) باب: ({فسوف يحاسب حسابا يسيرا}) حديث رقم: (٤٩٣٩) ومسلم في «صحيحه»: (٢٢٠٤/٤) كتاب: (الجنة وصفة نعيمها وأهلها) باب: (إثبات الحساب) حديث رقم: (٢٨٧٦)، واللفظ للبخاري.

المطلب الأول
وجه التعارض المتوهم بين الآية والحديث

إن الذي حصل لدى أم المؤمنين (رضي الله عنها) -عند سماعها لحديث النبي الكريم (ﷺ)- إشكال تمثل في عدم إمكانية الجمع بين الآية والحديث؛ مما حدا بها أن تسأل عن ذلك رسولَ الله (ﷺ)، هذا التعارض (المتوهم) يمكن تصويره على أنه تناقض منطقي[1] بين قضية كلية موجبة وقضية جزئية سالبة.

أما القضية الكلية الموجبة فإنها تفهم من قول رسول الله (ﷺ): «ليس أحد يحاسب إلا هلك» والقضية الكلية الموجبة المأخوذة من قول النبي (ﷺ) يمكن صياغتها بقولنا: «كل من حوسب هلك».

وأما القضية الجزئية السالبة فإنها تفهم من قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٧-٨] ويمكن صياغتها بقولنا: «بعض من يحاسب لا يهلك»[2].

إذاً نحن بإزاء قضية كلية موجبة تفيد انطباق الحكم التي اشتملت عليه هذه القضية على جميع الأفراد الذين تشملهم، وقضية جزئية سالبة تنفي الحكم عن بعض أفراد القضية الكلية الموجبة، وعلى هذا فنحن أمام قضيتين متناقضتين؛

---

(١) التناقض المنطقي هو اختلاف القضيتين في الكيف (أي: في الإيجاب والسلب) بحيث يلزم لذاته من صدق إحداهما كذب الأخرى. ينظر: «شرح السلم في المنطق للأخضري»: (ص: ٦٨) تأليف: عبد الرحيم فرج الجندي، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة»: (ص: ١٦٦)، تأليف عبد الرحمن حسن حبنكة، ط: دار القلم – دمشق، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

(٢) ينظر تفصيل ذلك في «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للإمام البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) (٣٤٢/٢١)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

ومحال أن يكون هناك تناقض بين كلام الله تعالى وكلام رسوله (ﷺ)؛ إذ إنهما يخرجان من مشكاة واحدة، والنبي (ﷺ) أعرف الناس بما جاءه من ربه، وهو المبيِّن لما في القرآن الكريم، فكيف يخالفه أو يناقضه؟! .

المطلب الثاني
سبب خفاء المعنى لدى أم المؤمنين

يمكن إرجاع السبب في خفاء المراد من الآية القرآنية على أم المؤمنين (رضي الله عنها) إلى واحد من أمور ثلاثة:

الأول: فهم الحساب في الحديث وفي الآية الكريمة معًا على معناه الحقيقي أي: مدلوله المطابقي، وهو ذكر الأعمال والمقابلة عليها، وهو المعنى المفهوم من المناقشة الواردة في الحديث الشريف، إذ المناقشة معناها: الِاسْتِقْصَاء فِي الْحساب حَتَّى لَا يتْرك مِنْهُ شَيْء»[1].

والحق أن المراد بالحساب في الآية غير ما أريد به الحديث، وأنهما لا يحملان على معنى واحد متحد، فالحساب في الآية أريد به جزء المعنى المطابقي، وهو ذكر الأعمال فقط من غير مقابلة ولا مجازاة، وذلك بدلالة التضمن فهو مجاز مرسل من باب إطلاق اسم الكل على الجزء[2].

الثاني: أنها (رضي الله عنها) ظنت أن الحساب الوارد في قوله (ﷺ) «ليس أحد يحاسب إلا هلك» من العام الباقي على عمومه، فيشمل جميع من يحاسب، بما في ذلك الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم ويحاسبون حسابًا يسيرًا.

---

(١) «غريب الحديث» للقاسم بن سلام(ت: ٢٢٤هـ): (٢٠١/١)، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن، الطبعة: الأولى، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٢) ينظر «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٣٤٢/٢١).

ولعل الصواب أن الحساب المذكور في الحديث هو عام أريد به خاص، أي: وإن كان لفظه عامًّا إلا أنه أريد به خاص، وهو الحساب الذي يناقش صاحبه، أما الحساب اليسير المذكور في الآية فليس مرادًا هنا(١).

الثالث: أنها (رضي الله عنها) قد فهمت أن الحساب الوارد في قوله (ﷺ) «ليس أحد يحاسب إلا هلك» من العام المتناول لجميع أفراده، بما في ذلك الحساب الوارد في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ ﴾ [الانشقاق: ٧-٨] وعلى هذا ظنت التعارض بين الآية الكريمة والحديث الشريف.

والحق أن الحساب الوارد في الحديث الشريف هو من العام المخصوص، الذي قد خُصَّ منه بعض أفراده، وهو الحساب اليسير، وعلى ذلك فإن الحساب الوارد في الآية الكريمة لا يشمله العموم الوارد في الحديث الشريف.

المطلب الثالث
خصائص البيان النبوي الكريم

لقد أجاب النبي الكريم (ﷺ) عن الإشكال الذي حصل للسيدة عائشة (رضي الله عنها) بوجيز لفظه الكريم، الذي هو من جوامع الكلم، المشتمل على المعاني الكثيرة بألفاظ يسيرة، وذلك في قوله (ﷺ): «لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ»(٢) وفي رواية " إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَكِنْ: مَنْ

(١) ينظر تأويلات أهل السنة، المعروف بـ «تفسير الماتريدي» (٤٧٣/١٠)، للإمام أبي منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، تحقيق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»: (٢٢٠٤/٤) كتاب (الجنة وصفة نعيمها وأهلها) باب: (إثبات الحساب) برقم: (٢٨٧٦) من حديث أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها).

نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ "[1] وفي رواية ثالثة: «إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا عُذِّبَ»[2] ويمكن الوقوف على بيانه (ﷺ) من خلال ثلاثة أمور:

أولًا: نفى النبي (ﷺ) عن الحساب الوارد في الآية الكريمة المعنى المطابقي لكلمة الحساب وما يشتمل عليه هذا المعنى من استقصاء للأعمال والمجازاة عليها، وهي التي إن وقعت لعبد من عباد الله فهو هالك لا محالة.

ثانيًا: وحتى يزول الإشكال ولا تبقى أمُّ المؤمنين في حيرة من أمرها في المراد بهذا الحساب المذكور في الآية أَعْلَمَها (ﷺ) المراد بالحساب في الآية بقوله: «إنما ذلك العرض»، وقد جاء تفسير العرض في أحاديث أخرى، منها: ما روته السيدة عائشة (رضي الله عنها) أنها سمعت النبي (ﷺ) يقول في بعض صلاته: "اللهم! حاسبني حسابا يسيرا" فلما انصرف قلت: يا نبي الله! ما الحساب اليسير؟ قال: "أن ينظر في كتابه، فيتجاوَزَ عنه، إنه من نُوقش الحساب يومئذ يا عائشةُ هلك. وكلُّ ما يصيبُ المؤمنَ يكفِّرُ الله (عز وجل) عنه حتى الشوكة تشوكُه"[3].

ثالثًا: فسَّر (ﷺ) الحسابَ المذكور في الحديث بأنه الحساب المشتمل على المناقشة، والذي يلزم منه العقاب والهلاك. فلم يبق بعد بيان رسول الله (ﷺ) بيان، فسبحان مَن آتاه جوامع الكلم.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣٢/١) كتاب (العلم) باب: (مَنْ سَمِعَ شَيْئًا فَلَمْ يَفْهَمْهُ فَرَاجَعَ فِيهِ حَتَّى يَعْرِفَهُ) برقم: (١٠٣) من حديث أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (١١٢/٨) كتاب (الرقاق) باب: (مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ) برقم: (٦٥٣٧) من حديث أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده»: (٢٦٠/٤٠) برقم (٢٤٢١٥) من حديث عائشة (رضي الله عنها).

المبحث العاشر

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١]

روى الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، أن عمر (رضي الله عنه)، سألهم عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١]، قالوا: فتح المدائن والقصور، قال: «ما تقول يا ابن عباس؟» قال: «أجل، أو مثل ضرب لمحمد (ﷺ) نعيت له نفسه»(١).

وبسنده عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله، فقال عمر: إنه من قد علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١]؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا، وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: «هو أجل رسول الله (ﷺ) أعلمه له»، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] «وذلك علامة أجلك»، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ٣]، فقال عمر: «ما أعلم منها إلا ما تقول»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (١٧٩/٦) كتاب (تفسير القرآن) باب: ({وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا}) برقم: (٤٩٦٩) من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (١٧٩/٦) كتاب (تفسير القرآن) باب: ({فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}) برقم: (٤٩٧٠) من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما).

الدراسة والتحليل

تبين الروايتان السابق ذكرهما جانبًا من جوانب خفاء المعنى القرآني وهو معنى قرآني دقيق خفي على بعض الصحابة الكرام وإن كانوا قد علموا المعنى الظاهر اللائح، فكما ذكرت الرواية الثانية فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ﷺ) كان له مجلس يجتمع فيه كبار الصحابة الكرام، وكان يدخل معهم في هذا المجلس عبد الله بن عباس (ﷺ) على الرغم من حداثة سنه؛ لما كان يرى فيه عمر (ﷺ) من أمارات النبوغ ورجاحة العقل وسداد الرأي، ولما وجد بعض كبار الصحابة رضوان الله عليهم في أنفسهم من دخول ابن عباس مجلسهم ومشاركته حديثهم أعلمهم عمر مكانته بقوله: «إنه مَن حيث علمتم»، ثم أراد أن يكون الحال والواقع شاهدين على ذلك –حيث يقول ابن عباس: «فما رئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم»– فدعاه يومًا وسألهم عما يعلمونه من تفسير سورة النصر، فأجابوا بما لاح من الآية وظهر، لا بما دق وخفي واستتر، فسأل ابن عباس (ﷺ) فأجاب بما دل على واسع علمه ومزيد فضله على ما بينته الرواية. وهذا الفهم الذي ذكره ابن عباس فهم دقيق لا يتأتى لكل أحد، فقد جعله عمر (ﷺ) دليلا على فهم ابن عباس الثاقب وعلمه الوافر؛ مما يؤهله للجلوس في مجالس الكبار على الرغم من حداثة سنه، وكذلك اختيار عمر (ﷺ) لهذه السورة وسؤالهم عن معناها دون سواها مفصح عن أن العلم بما دقَّ من معاني هذه السورة الكريمة يحتاج إلى وفور علم ودقيق نظر.

ويمكن إجمال الحديث حول هذه الرواية في أربعة مطالب:

- **المطلب الأول:** المعاني الإجمالية الواردة في تفسير السورة الكريمة.
- **المطلب الثاني:** المعنى الظاهر معنى صحيح.
- **المطلب الثالث:** الأدلة المثبتة للمعنى الدقيق في هذه السورة.
- **المطلب الرابع:** سبب خفاء المعنى على بعض الصحابة الكرام.

المطلب الأول
المعاني الواردة في تفسير السورة الكريمة إجمالا

ورد عن الصحابة الكرام في بيان المراد من السورة الكريمة على وجه الإجمال معنيان:

أحدهما: المعنى الظاهر المعبر عنه -كما في رواية البخاري- بقولهم: «أُمِرْنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا» فقد فسرها الصحابة الكرام بمقتضى ظاهر ألفاظها.

ثانيهما: المعنى الدقيق الخفي الذي فهمه بعض من جلة الصحابة الكرام ذوي العقل الوقاد والقريحة الصافية، ومفاد هذا الرأي: أن وراء هذه الألفاظ معنى كامنًا، وأن الظاهر ليس كل شيء، بل هناك دلالات مأخوذة من السياق الذي ورد فيه الأمر بالتسبيح والاستغفار، وأن الأمر أبعد من أن يكون مجرد أمر بالتسبيح والاستغفار عند النصر والفتح، فالسورة على هذا الرأي نَعَتْ إلى رسول الله (ﷺ) نفسَه، وهي أمارة على دنو أجله (ﷺ).

المطلب الثاني
المعنى الظاهر معنى صحيح

هذا المعنى الذي أجاب به الصحابةُ عمرَ بن الخطاب (رضي الله عنه) جميعًا لا يتعارض مع ما قاله ابن عباس (رضي الله عنهما)، وهو معنى صحيح لا مأخذ عليه، يقول الإمام ابن كثير (رحمه الله): «فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر، (رضي الله عنهم) أجمعين، من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه، يعني نصلي ونستغفره - معنى مليح صحيح، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي (ﷺ) يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات»[1].

(١) «تفسير ابن كثير»: (٨/٥١١ - ٥١٢).

ويدل عليه أيضًا ما روي عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت: كان رسول الله (ﷺ) يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه» قالت: فقلت يا رسول الله، أراك تكثر من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه؟» فقال: " خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾[النصر: ١]، فتح مكة، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾[النصر: ٢-٣][(١)].

وعنها (رضي الله عنها)، أنها قالت: «كان النبي (ﷺ) يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي" يتأول القرآن»[(٢)].

وما روي أيضًا عن أم المؤمنين أم سلمة (رضي الله عنها) قالت: كان النبي (ﷺ) قبل أن يموت يكثر أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك» قلت: يا رسول الله، إني أراك تكثر أن تقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك؟ فقال: «إني أمرت بأمـــــر»، فقرأ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٣٥١/١) حديث رقم: (٤٨٤) كتاب: (الصلاة) باب: (ما يقال في الركوع والسجود) من حديث عائشة (رضي الله عنها).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٦٣/١) حديث رقم: (٨١٧) كتاب: (الأذان) باب: (التسبيح والدعاء في السجود) من حديث عائشة (رضي الله عنها).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (٥/٢) حديث رقم: (٦٧٧)، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، الناشر: المكتب الإسلامي، دار عمار – بيروت، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م. قال الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ) في «مجمع الزوائد»: (٢٣/٩) تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م.

لكن هذا المعنى وإن كان صحيحًا فهو معنى لم يغص القائلون به على جواهر المعاني التي تتأتى بالنظر والاستنباط، ولذا سأل عمرُ ابنَ عباسٍ (ﷺ) ولم يقنع بما أجاب به الصحابة الكرام.

المطلب الثالث
الأدلة المثبتة للمعنى الدقيق في هذه السورة

أما عن كيفية استنباط هذا المعنى الجليل من السورة الكريمة فقد ذكر الإمام الرازي رحمه الله في ذلك خمسة وجوه، هي:

الأول: إن الصحابة الكرام عرفوا هذا المعنى لما رُوي أن الرسول خطب عقيب السورة وذكر التخيير.

والتخيير الذي يقصده الإمام الرازي هو ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري (ﷺ)، أن رسول الله (ﷺ) جلس على المنبر فقال: «إن عبدًا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده» فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله (ﷺ) عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله (ﷺ) هو المخيَّر، وكان أبو بكر هو أعلمنا به»[1].

قلت: ليس في الحديث ما ينبئ عن أن التخيير الذي ذكره النبي (ﷺ) كان عقيب نزول سورة النصر، بل في «صحيح ابن حبان» أن هذه الخطبة كانت في مرضه الذي انتقل فيه (ﷺ)، فقد روى بسنده عن أبي سعيد الخدري، قال: خرج علينا رسول الله (ﷺ) في مرضه الذي مات فيه وهو معصوب الرأس،

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٥/٥٧) حديث رقم: (٣٩٠٤) كتاب: (مناقب الأنصار) باب: (هجرة النبي (ﷺ) وأصحابه إلى المدينة) من حديث أبي سعيد الخدري (ﷺ).

فاتبعته حتى قام على المنبر، فقال: «إني الساعة قائم على الحوض»، ثم قال: «إن عبدًا عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة»، فلم يفطن لها أحد من القوم إلا أبو بكر، فقال: بأبي وأمي، بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا...»[1].

الثاني: أنه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجًا دلَّ ذلك على حصول الكمال والتمام، وذلك يعقبه الزوال.

الثالث: أنه أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقًا واشتغاله به يمنعه عن الاشتغال بأمر الأمة، فكان هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تمَّ وكمل، وذلك يوجب الموت؛ لأنه لو بقي بعد ذلك لكان كالمعزول عن الرسالة، وهو غير جائز.

الرابع: قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ تنبيه على قرب الأجل، كأنه يقول: قرب الوقت ودنا الرحيل فتأهب للأمر، ونبهه به على أن سبيل العاقل إذا قرب أجله أن يستكثر من التوبة.

الخامس: كأنه قيل له: كان منتهى مطلوبك في الدنيا هذا الذي وجدته، وهو النصر والفتح والاستيلاء، والله تعالى وعدك بقولـــه: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾[الضحى: ٤] فلما وجدت أقصى مرادك في الدنيا فانتقل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادات العالية.

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٤/٥٥٧ – ٥٥٨) حديث رقـم: (٦٥٩٣) كتـاب: (التاريخ) باب: (مرض النبي (ﷺ)) من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه).

المطلب الرابع
سبب خفاء المعنى على بعض الصحابة

لعل السبب في خفاء المعنى عن الصحابة الكرام الذين سألهم عمر (ﷺ) يرجع إلى أحد أمور ثلاثة:

الأول: الاكتفاء بما يقتضيه ظاهر ألفاظ السورة الكريمة دون البحث عما وراء هذه الألفاظ من معان شريفة واستنباط ما حوته من دلالات.

الثاني: اعتبار فعله (ﷺ) يوم فتح مكة بصلاته ثماني ركعات تفسيرا عمليًّا لهذه السورة الكريمة وقد جعل الحافظ ابن كثير فعل النبي هذا شاهدًا للتفسير الظاهر للسورة الكريمة، قال (رحمه الله) عن هذا المعنى الظاهر: «معنى مليح صحيح وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي (ﷺ) يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات»(١).

الثالث: اعتبار ما رُوي عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): «كان النبي (ﷺ) يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي" يتأول القرآن»(٢) تفسيرًا نبويًّا كريمًا للسورة الكريمة.

والله تعالى أعلى وأعلم وأجل وأكرم

(١) «تفسير ابن كثير»: (٨/٥١١ - ٥١٢).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١/١٦٣) حديث رقم: (٨١٧) كتاب: (الأذان) باب: (التسبيح والدعاء في السجود) من حديث عائشة (رضي الله عنها).

الخاتمة

الحمد لله حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خير الورى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد،،،

فقد انتهى بنا المطاف في هذه الرحلة المباركة مع صحابة رسول الله (ﷺ) إلى نهاية هذا البحث، وقد خلصت منه إلى نتائج، هذه أهمها:

أولًا: أكد البحث على أن اللغة العربية وحدها ليست كافية في إدراك المعاني القرآنية بل لابد من الرجوع إلى النقل عن رسول الله (ﷺ).

ثانيًا: أكد البحث على تفاوت الصحابة الكرام في معرفة تفسير القرآن الكريم.

ثالثًا: أبرز البحث عددًا من أسباب خفاء المعنى القرآني لدى الصحابة الكرام، أهمها:

١) حمل النصوص على ظاهرها مع أن المراد منها المجاز.

٢) اختلافهم في جودة القريحة وحسن التفهم وقوة الاستنباط وإدراك المعنى الكامن وراء الألفاظ.

٣) عدم مراعاة السياق.

٤) تنزيل القرآن على غير مواضعه.

٥) فهم ألفاظ بعض الآيات على العموم المطلق، والمراد غير ذلك.

٦) غياب بيان رسول الله (ﷺ) عن بعض الصحابة في الآية الكريمة.

٧) عدم الاعتبار بنصوص القرآن الكريم الأخرى، ثم الجمع بين هذه الآيات وفهم ما أشكل منها في ضوء ما لاح معناه وظهر.

رابعًا: أبرز البحث السمات الشريفة للبيان النبوي الكريم في معالجته ما وقع الصحابة فيه من أخطاء، وهذه أبرز المعالم:

١) التفسير النبوي الكريم أصل لتفسير القرآن بالقرآن؛ إذ ردَّ النبي (ﷺ) بعض القرآن – مما اشتبه فهمه على الصحابة الكرام– إلى بعض.
٢) من وجوه تبيين النبي (ﷺ) للقرآن الكريم: تعيين المبهم، وتخصيص العام.
٣) الإيجاز البليغ، مع الوفاء بالمعنى على أكمل وجه، بالإضافة إلى الوضوح والجلاء.
٤) إقامة الدليل على بيان الخطأ الذي قد يقع فيه الصحابة الكرام في تفسير القرآن الكريم.
٥) استثارة العقل بضرب المثال دون النص على كل ما تحتمله الآية من معان.
٦) في البيان النبوي الكريم إشارة إلى توسيع معاني القرآن الكريم، وعدم حصرها في وجه واحد، وهذا من إعجاز القرآن المجيد.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

القرآن الكريم جل قائله

١. إبراز المعاني من حرز الأماني، للإمام أبي شامة المقدسي (ت: ٦٦٥هـ)، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، ط: دار الكتب العلمية.

٢. الأحاديث المختارة للإمام ضياء الدين المقدسي (المتوفى: ٦٤٣هـ)، دراسة وتحقيق: د عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٣. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لابن حبان البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٤. أحكام القرآن، لأبي محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم المعروف «بابن الفرس الأندلسي» (المتوفى: ٥٩٧هـ)، تحقيق الجزء الأول: د/ طه بن علي بو سريح، تحقيق الجزء الثاني: د/ منجية بنت الهادي النفري السوايحي، تحقيق الجزء الثالث: صلاح الدين بو عفيف، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٥. الأخبار الموفَّقِيَّات، تأليف الزبير بن بكار المتوفى (٢٥٦هـ)، تحقيق: د. سامي مكي العاني، ط: عالم الكتب.

٦. أسد الغابة لعز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت، عام النشر: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٧. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٥هـ.
٨. أعلام الحديث، للإمام الخطابي (ت: ٣٨٨هـ)، تحقيق: د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، الناشر: جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م.
٩. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨هـ.
١٠. البحر المحيط لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.
١١. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ)، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: ١٤١٩هـ.
١٢. تأويلات أهل السنة، المعروف بـ «تفسير الماتريدي»، للإمام أبي منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
١٣. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، المعروف بـ «التحرير والتنوير» المؤلف: محمد الطاهر بن محمد

بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤م.

١٤. التعريف والإعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام في القرآن، لأبي القاسم السهيلي، ط: دار الكتب العلمية، ط: ١، سنة: ١٤٠٧هـ.

١٥. التَّفْسِيرُ البَسِيْط، للإمام الواحدي، النيسابوري، (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق مجموعة من الباحثين، الناشر: عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط: الأولى، ١٤٣٠هـ.

١٦. تفسير السمعاني، لأبي المظفر السمعاني (المتوفى: ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.

١٧. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، لمحمد رشيد رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠م.

١٨. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي (المتوفى: ٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، ط: الثالثة – ١٤١٩هـ.

١٩. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

٢٠. التفسير من سنن سعيد بن منصور، لأبي عثمان سعيد بن منصور (المتوفى: ٢٢٧هـ)، تحقيق سعيد آل حميد، الناشر: دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

٢١. التفسير المظهري، تأليف محمد ثناء الله المظهري، المحقق: غلام نبي التونسي، الناشر: مكتبة الرشدية – الباكستان، الطبعة: ١٤١٢هـ.
٢٢. التوشيح شرح الجامع الصحيح، تأليف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: رضوان جامع رضوان، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
٢٣. جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام أبي جعفر، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، توزيع: دار التربية والتراث – مكة المكرمة – ص.ب: ٧٧٨٠، الطبعة: بدون تاريخ نشر.
٢٤. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه المعروف بـ«صحيح البخاري» تأليف: الإمام أبي عبد الله البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطمانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٢٥. الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.
٢٦. حجة القراءات، لابن زنجلة (المتوفى: حوالي ٤٠٣هـ)، تحقيق: سعيد الأفغاني، الناشر: دار الرسالة.
٢٧. الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي (المتوفى: ٣٧٧هـ)، تحقيق: بدر الدين قهوجي – بشير جويجابي، الناشر: دار المأمون للتراث – دمشق / بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

٢٨. خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام، للإمام النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسين إسماعيل الجمل، الناشر: مؤسسة الرسالة – لبنان – بيروت، الطبعة: الاولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

٢٩. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تأليف: أبي العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.

٣٠. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للإمام جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت.

٣١. الروض الداني (المعجم الصغير)، لأبي القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، الناشر: المكتب الإسلامي ، دار عمار – بيروت ، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

٣٢. السبعة في القراءات، لابن مجاهد (المتوفى: ٣٢٤هـ)، تحقيق: شوقي ضيف، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ.

٣٣. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

٣٤. سنن الترمذي، للإمام أبي عيسى الترمذي (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.

٣٥. السنن الكبرى، للإمام النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

٣٦. شرح السلم في المنطق للأخضري، تأليف: عبد الرحيم فرج الجندي، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث.

٣٧. شرح معاني الآثار، المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، حققه وقدم له: محمد زهري النجار – محمد سيد جاد الحق، راجعه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: عالم الكتب، ط: الأولى – ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٣٨. ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، تأليف عبد الرحمن حسن حبنكة، ط: دار القلم – دمشق، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

٣٩. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للإمام بدر الدين العيني الحنفي (المتوفى: ٨٥٥هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤٠. غريب الحديث، لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم (المتوفى: ٢٢٤هـ)، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد– الدكن، الطبعة: الأولى، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

٤١. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، صححه: محب الدين الخطيب.

٤٢. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمر، الزمخشري جار الله (المتوفى:

٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ.

٤٣. كشف المشكل من حديث الصحيحين، لأبي الفرج ابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن – الرياض.

٤٤. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأبي إسحاق الثعلبي (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: علي عاشور، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

٤٥. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تأليف: علاء الدين علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ)، المحقق: بكري حياني – صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الخامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٤٦. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبي الحسن الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٤٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف: أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢هـ.

٤٨. مستخرج الطوسي على جامع الترمذي، لأبي علي الحسن بن علي بن نصر الطوسي المُلَقَّبُ: بِكَرْدُوشٍ (المتوفى: ٣١٢هـ) تحقيق: أنيس بن أحمد بن طاهر، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة المنورة – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٤٩. المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

٥٠. مسند ابن الجعد، تأليف علي بن الجَعْد بن عبيد الجَوْهَري البغدادي (المتوفى: ٢٣٠هـ) تحقيق: عامر أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة نادر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

٥١. مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرين، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

٥٢. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ﷺ) المعروف بـ«صحيح مسلم» تأليف: الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٥٣. المعجم الأوسط، للإمام أبي القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة

٥٤. المعجم الكبير، للإمام أبي القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

٥٥. معرفة الصحابة، لأبي نعيم الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

٥٦. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري (ت: ٧٦١هـ) تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م.
٥٧. مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ.
٥٨. مفحمات الأقران في مبهمات القرآن، للإمام السيوطي، تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا، الناشر: مؤسسة علوم القرآن، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٢م.
٥٩. النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (المتوفى: ٨٣٣هـ)، تحقيق: علي محمد الضباع (المتوفى ١٣٨٠هـ)، الناشر : المطبعة التجارية الكبرى.
٦٠. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تأليف إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة
٦١. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب (المتوفى: ٤٣٧هـ)، تحقيق مجموعة من الباحثين، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية– جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.
٦٢. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: مجموعة من الباحثين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط: الأولى، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص عربي	٢٩٥
الملخص إنجليزي	٢٩٧
المقدمة	٢٩٨
المبحث الأول: قوله تعالى: ﴿ ... وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ...١٨٧ ﴾	٣٠٣
المطلب الأول: تكرار حصول خفاء المعنى لدى الصحابة الكرام	٣٠٥
المطلب الثاني: أسباب خفاء المعنى عند نزول الآية أولًا	٣٠٥
المطلب الثالث: أسباب خفاء المعنى لدى سيدنا عدي بن حاتم (رضي الله عنه)	٣٠٨
المطلب الرابع: معالجة النبي (ﷺ)	٣١٣
المبحث الثاني: قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ ٦٦ ﴾	٣١٦
المبحث الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ... ٨٢ ﴾	٣١٩
المطلب الأول: خفاء المعنى القرآني على الصحابة الكرام في تفسير هذه الآية	٣٢٠
المطلب الثاني: أسباب خفاء المعنى القرآني الصحيح	٣٢٢
المطلب الثالث: المعالجة النبوية الكريمة لفهم الصحابة الكرام	٣٢٣
المبحث الرابع: قوله تعالى: ﴿ ... وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ ﴾	٣٢٥
المطلب الأول: مَن خفي عليهم المعنى الصحيح من الصحابة الكرام	٣٢٦

المطلب الثاني: أسباب خفاء المعنى الصحيح	٣٢٧
المطلب الثالث: بيان المعنى الصحيح للآية الكريمة	٣٢٨
المبحث الخامس: قولـــه تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ... ﴿٨٠﴾ ﴾	٣٣٢
المطلب الأول: وجه الدلالة على خفاء المعنى في الروايات السابقة	٣٣٤
المطلب الثاني: أسباب خفاء المعنى	٣٣٤
المطلب الثالث: الفهم النبوي الكريم للآية	٣٣٥
المبحث السادس: قوله تعـــالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ...﴿١١٠﴾ ﴾	٣٣٧
المطلب الأول: القراءات المتواترة في قولـــــه تعـــالى: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾	٣٣٩
المطلب الثاني: المعاني المحتملة على كلٍّ من القراءتين	٣٣٩
المطلب الثالث: معاني الآية الواردة عن الصحابة الكـــرام (ابـــن عباس وابن مسعود وعائشة (ﷺ))	٣٤٧
المطلب الرابع: خفاء المعنى القرآني على أم المؤمنين (رضي الله عنها)	٣٥٦
المبحث السابع: قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ... ﴿٣﴾ ﴾	٣٥٩
المطلب الأول: البيان النبوي الكريم	٣٦٠
المطلب الثاني: الأدلة على عموم الآية وعدم اختـــصاصها بقـــوم دون غيرهم	٣٦٢
المبحث الثامن: قوله تعالى: ﴿ ... وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ ...﴿٤﴾ ﴾	٣٦٤
المبحث التاسع: قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ	٣٦٧

﴿ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ ﴾	
المطلب الأول: وجه التعارض المتوهم بين الآية والحديث	٣٦٨
المطلب الثاني: سبب خفاء المعنى لدى أم المؤمنين	٣٦٩
المطلب الثالث: خصائص البيان النبوي الكريم	٣٧٠
المبحث العاشر: قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ ﴾	٣٧٢
المطلب الأول: المعاني الواردة في تفسير السورة الكريمة إجمالاً	٣٧٤
المطلب الثاني: المعنى الظاهر معنى صحيح	٣٧٤
المطلب الثالث: الأدلة المثبتة للمعنى الدقيق في هذه السورة	٣٧٦
المطلب الرابع: سبب خفاء المعنى على بعض الصحابة	٣٧٨
الخاتمة	٣٧٩
المصادر والمراجع	٣٨١
فهرس الموضوعات	٣٩١